بسم الله الرحمن الرحيم

على العهد

علم قراء هذه التراجم وجهتنا التى نتجه إليها فى كتابتها ، ولا نحسب أن أحداً ممن تتبعوها - أو تتبعوا معظمها . ينتظر منها بحثاً غير بحوثها التى عنيناها ، فليس يعنينا منها سرد الحوادث ولا استقصاء البيان عن فترة من السنين ، وإنما يعنينا من الحادثة التى نعرض لها ومن الفترة التى نستبينها أنها وسيلة إلى مقصد واحد : وهو التعريف بالنفس الإنسانية فى حالة من أحوال العظمة والعبقرية أو حالة من أحوال النبل والأريحية ، فإن جاوزنا هذا المقصد إلى غيره فإنما نجاوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الإنسانى ، فإن جاوزنا هذا المقصد إلى غيره فإنما نجاوزه لجلاء فكرة تحيط بأطوار التاريخ الإنسانى وتخرجه من غمار التيه والظلمة ، وتسلك به مسلكاً غير مسلك التخبط والضلال . .

***

ونحن نقيس أثر هذه التراجم بمقياسين متقابلين ، بل متعارضين متناقضين ، ولكنهما ينتهيان إلى نتيجة واحدة .

نقيس أثرها بالرضى والقبول من الموافقين ، ونقيسه بالسخط والنفور من المخالفين ، وكلاهما دليل على أثر نغتبط به ونستزيد منه : دليل على أن التراجم رمية أصابت مرماها ، وهذا كل ما نبغيه .

ومن الملاحظات التى نغتبط بها خاصة أن جانب الرضى عن هذه التراجم غير مقصور على أبناء دين واحد أو أبناء نحلة واحدة . . فتراجمنا لعظماء الإسلام قد اطلع عليها وتتبعها أناس كثيرون ممن لا يدينون بالإسلام ، وترجمتنا لغاندى قد كان أكثر قرائها من المسلمين ، وهؤلاء قد عرفوا وجهتها ولم يخرجوا بها عن سبيلها ، فليست النفس الإنسانية ملكاً لأبناء دين واحد ، وليس الكشف عن أسرارها وأغوارها فريضة شرع واحد أو عرف واحد ، وما من شىء يجعل للدين نفسه معنى إن لم تكن النفس الإنسانية ذات معنى وذات قيمة علاقة أصيلة بهذا الوجود أجمع ، فلا يضل

معتقد عن هدى عقيدته حين يؤمن بجانب من جوانب عظمتها أو جانب من جوانب النبل والأريحية فيها . . والسؤال الذى يسأله من يعرف المسألة كلها هو :

ـ هل تستحق الحياة أن نحياها ؟ . .

فإن كانت حياة الإنسان أهلا للثقة بها والإيمان بقدرها فالجواب نعم ، وإن لم تكن كذلك فلا جواب للسؤال غير اليأس والضياع والانحلال ، بل نحن نرى أن الشاكين والمترددين يثوبون إلى طريق الأمل والرجاء كلما لمسوا للنفس الإنسانية جذورا عميقة فى أصول الحياة ، وهذه الجذور تلمسها لما كلما علمنا أن النفس الإنسانية قابلة لعمل عظيم ، وكلما علمنا أن قوة الاعتقاد بالخير هى نفسها عمل عظيم . وليس الخلاف إذن بين دين ودين ، أو بين مذهب ومذهب أو بين فلسفة وفلسفة ، ولكنه خلاف بين حياة لها جذورها وحياة مستأصلة من جميع الجذور . وهو بعبارة أخرى خلاف بين حياة لها معنى وحياة فارغة من كل معنى ، ولو كان هذا المعنى من مخترعاتها الملفقة وأباطيلها المزجاة .

***

نقيس أثر هذه التراجم بالرضى من هؤلاء المؤمنين بمعنى الحياة وهؤلاء الباحثين عن معناها . .

ونقيسه كذلك بسخط الساخطين وغيظ المحنقين ، وكلما اشتد هذا السخط واضطرم هذا الغيظ علمنا موقع الرمية من الهدف الصميم ، فهو موقعها الذى أصبنا به المقتل من ذلك المعسكر الذى يسمى نفسه بمختلف الأسماء ولا يصدق عليه اسم كما يصدق عليه اسم أعداء الإنسان . .

وإنما تصدق الأسماء حيث تصدق على الصفات والأعمال ، وقد سمى بأعداء النوع الإنسانى قديماً معاشر من الخلق كانوا يكرهون النعمة ويعافون السرور ويتجنبون معاشرة الناس ، ولكنها تسمية لم تكن على صواب لأنهم كرهوا النعمة وعافوا السرور إيماناً بنعمة أشرف من جميع النعم وشوقاً إلى مسرة أرفع من جميع المسرات ، ثم تجنبوا معاشرة الناس ونبوا بضمائرهم عن العيش الذى لا يعرف النعم والمسرات إلا فى أحضان الرذائل والشهوات ، فمن شاء فليسم هؤلاء المتزمتين بما شاء من الأسماء إلا أن يسميهم بأعداء الإنسان . .

أما أعداء النوع الإنسانى حقاً فهم الحريصون على تصغير كل عظيم فيه ،

الملوِّثون لكل صفحة نقية من صفحاته ، العاكفون على هدم كل ما بناه فى تاريخه الطويل من قيم الأخلاق وعقائد الخير والفلاح ، الذين يعملون ما لا يعمله إلا عدو مغير على الأرض يتعقب بقايا أهلها كما يتعقب العدو اللدود جنساً من ألد الأعداء لجنسه ، فلا يسره شيء كما يسره أن يرجع إلى ماضيه وحاضره بالتشويه والتخريب ، وذم الحميد منه وتسجيل الذميم المعيب .

***

ويبلغ المسخ بهؤلاء المساكين أنهم يخلصون فى بغضائهم إخلاص الجنسين المتعادين بالطبيعة ، فلا يقنعون بما يجدونه من العيوب والأدناس بل يتجسسون عليها ويلحون فى تأويلها ، ولا يطيب لهم شيء كما يطيب لهم أن يطلبوا الثناء على بطولة البطل وتفدية الشهيد وإثار الكريم ، فيردوه إلى الزراية والمهانة ، وتعليل الأمور بأسوأ العلل ، وتفسيرها بأقبح البواعث والأغراض . . ومثل هذه اللجاجة فى تلطيخ تراث الإنسانية كله بالأوزار والأدناس لا تصدر إلا من طبع سقيم وخليقة عوجاء ، فيجوز لكل صاحب عقل أن يفهم بعقله علل الأعمال سامية أو مسفة ، وعامة أو خاصة ، ومخلوطة بالأثرة أو خالصة للإيثار ، ولكن الهيام بتحقير كل عظيم واتهام كل ثناء والحماسة المتشنجة لتغليب الخسة على النبل ونبش السمعة المأثورة عن جراثيم النتن والقذى ليس المرجع فيه إلى فهم ودراسة ، ولكنه يرجع إلى مسخ فى الكيان يسلخ المبتلى به فى مسالخ العدو المشين لنوع الإنسان .

وما كان فى وسع إنسان حى أن يسيغ الحياة كما يريدها هؤلاء المسخاء المنكودون ، ولكنهم فقدوا الثقة بالحياة المثلى فعوضوها ببديل منها لا يغنى عنها إلا إلى حين . . إن المنحدر من القمة إلى الهاوية يتحرك فى انحداره ، بل يتحرك سريعاً إلى قراره ، وهو فى حركته هذه أسرع من الصاعد إلى القمة . . بجهده وهدايته ، وأسبق منه جداً إلى غايته بل نهايته . . إلا أنها حركة المصاب بالحركة على الرغم منه ، فلا وجه للمقابلة بين الصاعد المجاهد والهابط المقذوف كما ينقذف الجلمود ، وإن لا لمن يراهما أنهما متحركان وإن الهابط منهما أقدر من الصاعد على العدو والجريان . .

وقد امتلأ مكان الثقة من نفوس هؤلاء المسخاء بسخائم المقت والكراهية ، فكانت لهم عوضاً بئس العوض : كانت لهم عوضاً كعوض الحركة الهابطة من الحركة الصاعدة ، وليس أدل على ضرورة الثقة للإنسان فى اجتماعه وانفراده من

حاجة هؤلاء إلى تعويضها بذلك الثمن الثقيل ، وإنه لجدّ ثقيل فى الحقيقة ، فإنه لهو الانتحار بغير إرادة الانتحار .

ونحمد الله على نصيبنا من هذه الكراهية كما نحمده على نصيبنا من تلك الثقة ، فهذه وتلك كلتاهما مقياس صادق لأثر هذه التراجم التى نزيدها اليوم ترجمة جديدة ، وسنزيدها بمشيئة الله كلما اتسع الوقت وأحسسنا الرضى من هنا والكراهية من هناك .

***

إن سيرة الخليفة الثالث نمط من أنماط متعددة زخرت بها الدعوة الإسلامية من سير الخلفاء وغير الخلفاء : أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وأبى عبيدة ، وخالد ، وسعد ، وعمرو ، وأمثالهم من الصحابة والتابعين ، ما منهم إلا من كان عظيما بمزية وعلما من أعلام التاريخ ، فأين كان موضع هؤلاء من العظمة ومن تاريخ بنى الإنسان لولا العقيدة الدينية ولولا الرسالة المحمدية ؟

ليقل من شاء من فلاسفة التاريخ مايشاء فى التعليل والتحليل والتلخيص والتفصيل ، فمهما يقل القائلون ومهما يشرح الشارحون فليس من السهل على عقل رشيد أن يزعم أنها كلها خدعة وهم فى رؤوس أناس جاهلين . ولا حاجة هنا إلى الفلسفة ولا إلى الحذلقة ولا إلى الجدل الطويل ، فالقول الفصل بعد كل قول ووراء كل شرح إن الوهم الخادع فى رؤوس الجاهلين خير ألا يكون . وماذا يبقى من تاريخ الإنسانية لو حذفنا منه هذه العوامل الحية وقلنا مع القائلين إنها وهم من الأوهام كان خيراً لها إنه لم يكن ولم يكن بعده ما جرى فى مجراه ؟

***

وفى هذه السيرة على ما نرجو ، وعلى خلاف ما يخطر فى بال الكثيرين لأول وهلة شواهد على هذه الغيرة الكبرى أكبر من شواهد أخرى ، فلعلها لا تبرز لنا عبقرية كعبقرية الصديق أو الفاروق أو الإمام ، ولكنها تبرز لنا من جانب الأريحية صفحة لا تطوى ، ولا يستطيع العقل الرشيد أن يرجع بها إلى باعث غير العقيدة والإيمان .

الفصل الأول

بين القيم والحوادث

ربما كانت سيرة الخليفة الثالث - ذى النورين - أوفى السير بالشواهد على الخصائص التى تلازم تاريخ العقيدة فى أطوارها الأولى ، ولا سيما أطوار التحول فى طريق الاستقرار .

وأبرز هذه الخصائص فى تاريخ العقيدة أنه تاريخ قيم ومبادئ وليس بتاريخ وقائع وأحداث . .

فالوقائع والأحداث تتشابه فى العصور المتطاولة ، ولو أننا تخيلناها معروضة فى الصور الصامتة لما وجدنا من فارق يذكر بين الوقائع والأحداث التى تفصلها من مسافة الزمن آلاف السنين ومن مسافة المكان آلاف الفراسخ : كلها صورة متكررة من حيث ظواهرها وأغراضها البادية للعيان ، ولكنها تختلف اختلافاً بعيداً حين تنفذ من ظاهرها إلى باطنها ، أو حين تنفذ من حركاتها المكشوفة إلى القيم النفسية التى تكمن وراءها ، وإلى الدعاوى التى تدور عليها ، ولو كانت من دعاوى المبطلين التى يصدق عليها فى بعض الأحايين أنها كلمات حق أريدت بها أباطيل .

فالحوادث التى تدور على طلب السطوة غير الحوادث التى تدور على طلب الحرية ، ولو كان طلب الحرية أكذوبة يتعلل بها المتعلل لغاية فى نفسه يسترها ويعلن ما عداها .

فإذا كان المتعلل بالحرية مبطلا فى دعواه فهناك فارق صحيح بين المعارك التى تذكر فيها الحرية حقاً أو باطلا والمعارك التى لا ترد فيها على لسان أحد ولا تخطر بباله . فلولا أنها أصبحت شيئاً يهتم به الناس ويتنازعونه لما ذكرها الصادقون ولا المبطلون . ومتى أصبحت الحرية قيمة من القيم المحسوبة فى حياة الأمم فهناك دليل عليها ممن يتعلل بها صادقاً ويتعلل بها كاذبا ليخدع الناس بها عما يريده من ورائها .

***

وفى سيرة عثمان رضي الله عنه صدمة عنيفة تواجه كل باحث فى تاريخ صدر الإسلام ، وتلك هى قتلته البشعة وهو شيخ وقور جاوز الثمانين .

لم يكن عثمان أول خليفة قتل . فإن الفاروق عمر بن الخطاب قتل قبله غيلة وهو يقيم الصلاة .

ولكن مقتل عمر لم يكن صدمة فى تاريخ العقيدة . . قتله غلام دخيل على الإسلام ومن ورائه عصابة تدين بغير دينه وتكره منه ما عمله لإقامة ذلك الدين ، فلا غرابة ولا صدمة ، ولا شيء فيه غير الفاجعة التى تفجع نفوس المسلمين . .

أما تلك القتلة البشعة التى انتهت بها حياة الخليفة الثالث فشيء غير هذا ، بعيد عن هذا فى صدمته المفاجئة لمن يتابع تاريخ العقيدة الإسلامية فى أطوارها الأولى .

لم يمض جيل على الإسلام ويقتل خليفة المسلمين هذه القتلة ؟ . . فماذا صنعت هذه العقيدة إذن بنفوس الحاكمين والمحكومين ؟ . . وماذا تغير من فتكات الجاهلية بعد جهاد المؤمنين وإيمان الكافرين ؟

والسؤال صدمة عنيفة . .

ولكنه قائم على خطأ جسيم ، وإن يكن خطأ قريب التصحيح .

فالعقيدة لا تبطل الخلاف والنزاع ولا تختتم الوقائع والأحداث فى التاريخ ، ولم يحدث قط فى دعوة إصلاح فى الدين أو غير الدين أنها قسمت التاريخ إلى عهدين : عهد سابق كان فيه نزاع وكانت فيه أحداث ، وعهد لاحق يبطل فيه النزاع وتنقضى فيه الأحداث .

لم يحدث هذا قط ولا يحسن أن يحدث ، فإنه لو حدث لكانت العقيدة المصلحة شللا معطلا لحياة الأمم معوقاً للتاريخ فى مجراه المطرد إلى غير قرار . .

إن العقيدة لا تلغى الحوادث والخصومات ، ولكنها تجدد القيم التى تدور عليها الحوادث والخصومات .

وليست الخصومات شر ما يبتلى به الناس ، فشر منها الخسة التى ترضى بالدون ، وشر منها الوفاق على الغش والمهانة ، وشر منها شلل الأخلاق الذى لا يبالى صاحبه ما يحسن وما يقبح وما يرضى وما يسوء ، وشر منها الحياة بغير قيمة تستحق الخلاف عليها وبغير معنى يتسع للبحث فيه . .

فليس مطلوباً من العقيدة أن تبطل الخصومات ، ولكنما المطلوب منها أن ترتفع بالنفوس عن الخصومة فى غير شأن ، أو ترتفع بها عن الخصومة فى شأن هزيل ضئيل . .

وعلى هذا ينبغى ألا تكون الخصومات والأحداث هى مدار البحث فى تاريخ هذه الفترة ، بل ينبغى أن يكون مدار البحث على القيم والمبادئ التى دارت عليها تلك الخصومات والأحداث .

ولا نقول إن الفاجعة إذن تهون . .

وغاية ما نقوله أنها تفهم على وجهها الصحيح ، وأنها تفهم على وجه لا يريب فى عمل العقائد وعمل العقيدة الإسلامية على التخصيص .

لقد كان مدار الخصومة على محاسبة الإمام : محاسبة الرعية لإمامها ، ومحاسبة الإمام لنفسه ، وكل أولئك شيء جديد فى التاريخ ، وكل أولئك شيء يقيم ويقعد فى حياة الأمم ، ولا سيما حياتها فى أطوار العقيدة الأولى .

أين كان أبناء الجاهلية من حق الحساب بين الحاكم والمحكوم ؟

أما فى البادية فقد كان الحساب كله على شريعة الثأر والانتقام وإغارة القبيلة الكبيرة على القبيلة الصغيرة ، وكان الغالب على الفرد أن يعيش فى كنف قبيلته ، تحميه إن استطاعت ، أو تخلعه إن عجزت عن حمايته . وقد شاع فى العصور الحديثة كلام كثير عن الحرية البدوية ولم تفهم على حقيقتها مع كثرة الكلام فيها ، فما كانت الحرية البدوية قط قائمة على حق إنسانى تحميه الشرائع والآداب ، ولكنها كانت أشبه شيء بانطلاق المادة حيث لا عائق لها مما حولها ، ومثل هذه الطلاقة طلاقة العصفور فى فضائه والحيوان الأبد فى صحرائه : طلاقة المادة حيث لا حواجز ولا سدود . .

وأما الحكومات التى قامت فى الجزيرة العربية ، على نحو من نظام الملك والإمارة ، فقد كانت شريعتها - على خلاف المظنون - طغياناً مطلقاً من جميع القيود ، وكان بعض ملوكهم يتخذ من أهوائه ونزواته شعائر يدين بها الناس فى مسائل الحياة والموت ، فكان المنذر بن ماء السماء يجعل له يوم نعيم ويوم بؤس ، ويقتل كل من يسوقه إليه الحين فى يوم بؤسه ولو كان عابر طريق ، وكان يسكر ويأمر بالقتل فينفذ لساعته ولا يدرى بعد إفاقته فيم كان هذا العقاب إن صح أن يسمى بالعقاب . وحدث أن حجر بن الحارث فرض على بنى أسد إتاوة ثقيلة

فتمردوا عليها فاستباح أحياءهم ، واعتقل رؤساءهم ، وأقسم ليقتلنهم بالعصا هوانا بهم عنده أن يقتلهم بالسيف أو السلاح ، فسموا من أجل ذلك بعبيد العصا وقال شاعرهم عبيد بن الأبرص يستشفع فيهم :

ومنعـتـهم نجـدا فـقـد   حلوا على وجل تهـامـه
إمـا تركت تركت عـفـ   ـواً أو قـتلت فـلا مـلامـه
أنت المـلك فـوقـهـم   وهم العـبـيـد إلى القـيـامـه

وكان عمرو بن هند يكلم الناس من وراء ستور ، وكانوا يضربون المثل بكليب وائل فى عزته فيقولون عن العزيز البالغ فى العزة : «إنه أعز من كليب وائل» . . لأنه كان يحمى الكلا فلا يقرب حماه ، ويمر بالمكان يعجبه فيرمى عنده بكليب وينادى بين القوم إنه حيث بلغ عواؤه كان حمى لا يرعى . . وكانوا يقولون : «لاحر بوادى عوف» لأنه كان من عزته يقهر كل من حل بواديه ، فكلهم عنده كالعبيد . .

وأقبح من ذلك ما روى عن عمليق ملك طسم وجديس ، فإنه كان يأمر ألا تزف الفتاة إلى بعلها قبل أن تزف إليه ، وفى ذلك تقول إحدى هؤلاء الفتيات :

أيجمل ما يؤتى إلى فتياتكم   وأنتم رجال فيكم عدد الرمل؟

إلى أشباه هذه المظالم التى أجملناها فى كتابنا عن الديمقراطية فى الإسلام ، وقلنا معقبين عليها إنها روايات لم تخل من إضافات القصة والخيال كجميع روايات التاريخ القديم المنقول بالتلقين والإسناد «ولكننا نثبتها ونعول عليها لأن الفكرة هنا أبلغ من الخبر أصدق من وثائق الأوراق ، فلو لم تكن فكرتهم الغالبة عن الحكم أنه عزة وخيلاء لا تكملان لصاحبهما بغير إذلال الأعزاء ، وتمحل الذرائع للعنو والإيذاء ، لما تواترت أنباء الملوك على هذه الوتيرة . .» .

***

ومن هذه الفكرة المتواترة عن سلطان الحكم إلى محاسبة الخليفة على كل صغيرة وكبيرة فى شئون الدولة بون بعيد ، وشيوعها بين الخاصة والعامة حتى يتصدى للحساب صغير القوم وكبيرهم على السواء هو الفتح الذى جاءت به العقيدة الإسلامية على أعقاب الجاهلية وعلى مسمع من طغيان الأكاسرة والقياصرة والتبابعة ، فى الشرق والغرب والشمال والجنوب . .

وسنرى أنهم كانوا يحاسبون الخليفة على الزيادة فى حمى المرعى المتروك ، لابل

الصدقة بعد تكاثرها ومضاعفة عددها ، وسنرى أنهم كانوا يحاسبون والياً من أكبر ولاته - وهو والى الشام معاوية بن أبى سفيان - لأنه سمى مال الدولة مال الله بعد أن كان يسمى ببيت مال المسلمين ، وأشفقوا أن يكون تغيير الاسم تمهيداً لاستئثار الحاكم بالتصرف فيه ، وكف المسلمين أصحاب المال عن المحاسبة عليه .

هذه المحاسبة بين الحاكم والمحكوم قيمة كبيرة نشأت مع العقيدة المحمدية ، وهى قيمة كبيرة على جميع حالاتها من الصدق فيها أو التذرع بها إلى غرض قد يخفيه أصحاب الذرائع والتعلات ، فإن القانون يصونه أناس مخلصون ويدعى غيرهم صيانته كاذبين مدلسين ، ولكن القانون على الحالتين كسب عزيز لا يستهين به عاقل ولا يقول أحد بالاستغناء عنه من أجل الكذب به أو الكذب عليه ، وكذلك كل قيمة غالية من قيم الحياة الإنسانية كالفضيلة والخير والحرية والصدق وماشابهها من فتوح الضمير فى آماد التاريخ مما يحرص عليه الناس أو يصطنعون الحرص عليه ، فإنما تكسبها الإنسانية بالتعارف عليها وقبولها أو قبول مقاييسها ، ولن تكون القيم جميعاً إلا من هذا القبيل وعلى هذا المثال .

***

ولقد كان من الناهضين لمحاسبة عثمان ﷺ أناس مغرضون يقولون مالا يفعلون ويفعلون غير ما يقولون . كان منهم من أقام عليه الحد ، ومن حبس أباه فى جريمة ، ومن فرق بينه وبين حليلة تزوجها على غير الشريعة ، ومن أبى عليه الولاية ، ومن لم يصنع به الخليفة أمراً من هذه الأمور ولكنه كان منطوى النية على الفساد والإفساد . وكل هذه المآرب قد شيبت بها حركة المحاسبة على أعمال الخليفة ، فكانت عيباً للحركة ولكنها لم تكن عيباً لحق المحاسبة ولا إزراء بشأنه ولا بالشأن الذى أكسبته الأمة من تقريره والتعارف عليه ، ولولا أنه حق لما تعلل به المبطلون . .

وآفة البحث فى تطور الأخلاق والقيم الإنسانية أن يتولاه من لا يفقهون قيمة النهى عن شىء بعد أن كان مباحاً غير منهى عنه ولا يخطر النهى عنه على بال أحد ، فإقامة الحدود التى يؤخذ الناس بالتزامها وينهون عن تجاوزها ، هى عنوان الدوافع الباطنية التى غيرت حياتهم ، وغيرت نظراتهم إلى الأعمال والأخلاق فأعلنوها فى تلك الحدود .

وأضل من هؤلاء من يبحثون فى تطور الأخلاق بالعناوين ويطلقون العنوان الواحد على صفتين مختلفتين أو متناقضتين ، ويكاد القس راشدال Rashdall أن

يزن الأطوار الأخلاقية بهذا الميزان حيث يقول : «إنه ندر من رذيلة أو جريمة إلا كانت فى زمن من الأزمنة منظوراً إليها كأنها واجب من واجبات الديانة أو العرف ، كالسرقة التى كانت تحسب فضيلة من الناشئة الإسبرطية ومن الطائفة الهندية التى تسمى بطائفة الخناقين ، وقد كانت القرصنة - وهى سطو وقتل - صناعة محترمة فى العالم القديم ، وكان الاضطهاد الدينى فى القرون الوسطى أشرف الواجبات» .

وليس من الميسور فى هذا المقام أن نفصل وجوه الخلاف بين الإباحة القديمة والتحريم الحديث فى جميع هذه الفعال والخلال ، ولكننا نكتفى بما يستطاع بيانه بغير حاجة إلى الإفاضة والإسهاب كالقرصنة ما بين العصرين القديم والحديث . فهل القرصنة التى نحرمها اليوم هى القرصنة التى كانت مباحة بالأمس أو هما نقيضان باسم واحد مشترك بينهما بوهم الاصطلاح ؟

الواقع أن قرصنة الأمس كانت حقاً كحق صاحب الملك الذى تسطو عليه ، إذ كان صاحب الملك يجمع بضاعته بالسطو على قبيلة أو عشيرة أضعف منه وأعجز عن الهجوم والدفاع ، فإن كان فيما يملكه شىء مصنوع فهو من صنع العبيد المسخرين فى أرضه أو معمله وكلهم من أسرى الحرب المغتصبين من أبناء القبيلة التى قهرت لأنها عاجزة عن مقاومته ودفعه . فحقه فى بضاعة السفينة كحق القرصان عليها ، وليس هذا الحق الذى يستطيع القرصان فى العهد الحديث أن يدعيه ويقبل التعارف عليه . .

ويصدق على سرقة الناشئة الإسبرطين ما يصدق على القرصنة فى العصور القديمة ، ويمكن أن يقال كذلك أن الاضطهاد الدينى فى العصور الوسطى غير الاضطهاد الدينى فى العصر الحديث . لأن العمل لا يعتبر رذيلة أو جريمة إلا إذا كان فيه نقض لقيمة أخلاقية مصطلح عليها ، ولم يكن التسامح ولا الحرية الفكرية قيمة مصطلحا عليها فى العصور المظلمة بين الأوربيين سواء منهم المضطهدون ومن يقع عليهم الاضطهاد ، فلو أن أحداً من الذين وقع عليهم الاضطهاد ظفر بمخالفيه فى العقيدة لاضطهدهم كما اضطهدوه وقسرهم على التصديق بعقيدته كما قسروه ، وكلا الفريقين يستعيذ من حرية الفكر على اعتبارها تفريطاً فى الغيرة على الدين .

فالقيم الأخلاقية والوجدانية هى الجوهر المهم فى تطور الأخلاق ، وليست هى الأسماء والعناوين ، ومتى ظهرت «القيمة» فى أمة فهى مكسب حق لاشك فى نفعه أياً كانت نية المنادى به على الصدق أو على الخداع ، فلو لم يكن الذهب ذا قيمة لما استحق أن يزيفه المزيفون . .

ومحاسبة الحكام كانت قيمة جديدة بين العرب وسائر المسلمين فى الصدر الأول من الإسلام ، فنادى بها الخاصة والعامة وادعاها الصادق والكاذب ، وظلت عاملا مهما فى السياسة أيام الخلافة وبعد أن صار الحكم ملكاً يتوارثه الأبناء عن الآباء . .

***

أما الخليفة عثمان ﷺ فأثر العقيدة فيه وهو فرد أوضح من أثرها فيمن قدموا إليه من الأمصار ليناظروه ويحاسبوه ، وهو واحد من آحاد معدودين لم يكن فى وسع العقل أن يتخيلهم فى جاهليتهم على حالتهم التى ارتفعوا إليها بعد الإسلام . .

إنه كان من سلالة الأمويين ، وهى سلالة اشتهرت فى الجاهلية بالحرص على المال لا تبذله فى غير مأرب أو متعة ، ولم ينهض أحد منهم بتكاليف المروءة والسخاء إلا منافرة لمن ينافسهم بين الملأ ، وغيرة منهم إلى المجد والثناء ، فلما أسلم عثمان ﷺ كانت شهرته الكبرى بالسخاء والأريحية ، فنزل عن ماله لتسيير جيش فى سنة العسرة ، ونزل عن ماله لشراء بئر يستقى منها المسلمون بغير ثمن ، ونزل عن ماله لتوسعة المسجد ، ونزل عن ماله لحمل المغارم وإعانة الملهوف والبر بالأقربين والأبعدين . .

ومذهبه فى محاسبة نفسه قد تتعارض فيه الأقوال والتأويلات ، ولكنه فى الأمر الثابت الذى لا جدال فيه قد بلغ الذروة من محاسبة النفس والتحرج من المساس بالحياة البشرية ولو فى سبيل الذود عن حياته وحياة أقرب الناس إليه . فلما أيقن من القتل أبى أن يبقى فى داره من يقتل أحداً ممن يحيطون بها ويعالجون اقتحامها لاغتياله ، ولما سئل أن يتنحى عن الخلافة أبى أن يتنحى عنها ، ولم يكن إباؤه ضناً بشىء يحتويه ، فلا شىء أغلى من الحياة وقد هانت عليه ، ولا يزعم أحد أنه غنم من الخلافة مالا ، ولكنه أبى أن يخلع نفسه حذراً من أن يحمل جريرة الخلع وما يعقبه من النزاع والقتال ، وقد صرح بذلك غير مرة فقال أنه يخشى على الذين يستطيلون أيامه أن يتمنوا بعده لو كان يومه مائة سنة ، فلا يبوءن بالعاقبة المحذورة وهو مختار . .

***

فإذا تركنا الحوادث جانبا ونظرنا إلى التاريخ فى صدر الإسلام على أنه تاريخ قيم ومبادئ ، فلنا أن نقول إننا أمام فواجع مزلة يود الناظر إليها لو يزوى بصره عنها ، وليس لنا أن نقول إننا أمام صدمة يصطدم بها من يسأل عن أثر العقيدة وأطوارها ، فلا صدمة هناك إذا نحن وزنا الحوادث بميزان القيم ، وعلمنا أن التاريخ لن يخلو من الحوادث ، وأن حوادث الخلاف ليست بأكبر الشرور تبتلى بها ضمائر بنى الإنسان . .

***

وبعد الصدمة

وليست الصدمة العنيفة بالحائل الوحيد دون توضيح هذه الفترة وتمحيص أسبابها وعواملها وتبعات المسئولين عنها . فالصعوبة الكبرى أننا فى هذه الفترة أمام حادثين يرجع كل منهما إلى أسبابه وعوامله ، ويتكلم عنهما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متحد الأسباب والعوامل . .

هذان الحادثان هما التطور السياسى ومقتل عثمان ﷺ ، وأسباب هذا لا تكفى لتعليل ذاك وليس من الحتم أن تؤدى إليه . وقد طال الجدل حول عمل عبد الله بن سبأ الملقب بابن السوداء وأثره فى هذه الفترة ، فرأى بعض المؤرخين أنه أهون من ذاك لأنهم اعتقدوا أن الانقلاب السياسى ومقتل عثمان حادث واحد له أسباب واحدة ، وليس هو كذلك . ولو أنهم فصلوا بين الأسباب فى كليهما لأمكن تقدير التبعة والاستطاعة فى عمل كل عامل ودسيسة كل مشترك فى المؤامرة .

***

فابن السوداء ولا شك أهون من أن يحدث التطور السياسى ، وغيره ممن هم أعظم منه شأناً وأشد منه خطراً أهون من إحداث ذلك التطور كله سواء تعمدوه أو عملوا له غير عامدين ، لأنه يرجع إلى أسباب متفرقة عميقة القرار ، كثيرة التشعب ، لا تضطلع بها قدرة رجل واحد ولا عدة رجال متألبين متواطئين . .

ولكن مقتل عثمان شىء آخر غير التطور السياسى ، وفى وسع ابن السوداء ومن هو أقل منه أن يقترفه بيده وأيدى من يستمعون لتحريضه ودسيسته ، لأنه فى حقيقته «مشاغبة» من مشاغبات الدهماء التى لا تعجز عن أمثال هذه الأفاعيل .

والذين يقرأون فاجعة عثمان ويلمون بالتاريخ يسبق إلى خيالهم ما قرأوه عن مصارع رؤساء الدول فى إبان الثورات والفتن القومية كالثورة الإنجليزية مع شارل الأول والثورة الفرنسية مع لويس السادس عشر ، وغيرهما من الثورات فى العالم القديم والعالم الجديد .

ومتى سبقت إلى خيالهم هذه الصورة ، حسبوا أن الثورة التى أفضت إلى مقتل رئيس الدولة فى الأمتين كالثورة التى أفضت إلى مقتل رئيس الدولة الإسلامية فى صدر الإسلام ، وبينهما فى الواقع فارق بعيد أبعد من فارق الزمان والمكان .

إن الثورة التى أطاحت بشارل الأول قد اجتمعت فيها قوة الأمة بأسرها على وجه التقريب أمام قوة العرش وأنصاره من النبلاء ، وقد كانت هناك حرب وهزيمة غلبت فيها إحدى القوتين ، وانهزمت فيها القوة الأخرى .

وهكذا حدث فى الثورة الفرنسية التى طاحت بلويس السادس عشر ، وهكذا حدث فى ثورات كهذه بالقارة الأمريكية والعالم القديم .

أما مقتل عثمان عليه الرضوان فلم تكن فيه حرب بين قوة الدولة وقوة الأمة ، ولم تتقابل فيه قوى الحكومات الإسلامية وقوى الأمم فى البلاد العربية وغير العربية ، وغاية ما يوصف به أنه «حادثة محلية» قد تتم على أثر مشاغبة جامحة من مشاغبات الدهماء ، وقد يستطيعها ابن السوداء ومن هو أقل من ابن السوداء .

وعلى سبيل الإيجاز الذى يغنينا عن الإسهاب فى المقارنة والمناقشة نقول : إن عثمان ﷺ ما كان ليقتل لو كانت داره محروسة حراسة الدور التى يقيم فيها ولاة الأمور ، وإن هذه الجمهرة التى اقتحمت داره واجترأت عليه بالسلاح ما كانت لتقتل والياً من ولاته ـ كمعاوية ابن أبى سفيان فى الشام مثلا ـ لو أنها هجمت على داره بين حرسه وأجناده ، فلا محل هنا للموازنة بين قوى الدولة وقوى المشاغبة أو الفتنة ، ولامحل كذلك للموازنة بين عوامل الانقلاب السياسى وعوامل الدفاع عن شخص الخليفة فى داره ، فكل عوامل الانقلاب لم يكن من الحتم أن تؤدى إلى مقتل الخليفة ولو بلغت أضعاف ما كانت عليه ، وقد كانت المشاغبة التى جنت جنايتها على حياة الخليفة كافية لاجتراح هذه الفعلة ولو لم يكن وراءها كل عوامل التطور التى كانت تتجمع هنا وهناك فى تلك الفترة الفاجعة ، وقد بقيت عوامل التطور وازدادت بعد انتهاء عهود الخلفاء الراشدين وقيام الملك الموروث ، فلم ينجم عنها مقتل ملك أو وال من كبار الولاة فى بقاع الدولة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها . .

***

فمن الواجب إذن عند إحصاء الأسباب والتبعات ، والكلام عما يستطاع وعمن يستطيعه أن نفرق بين الحادثين وأن نرجع بالتطور السياسى إلى أسبابه وعوامله التى تبلغ ما تبلغ ولا يلزم منها أن تؤدى إلى مقتل ولى الأمر فى عاصمته ، وأن نرجع بمقتل ولى الأمر إلى أسبابه وعوامله التى قد تحدث مع ذلك التطور وقد تحدث منفصلة عنه فى كل طور من أطوار القلق والتذمر ، مما يدوم أو ينقضى بانقضاء أوانه ثم لا يعود فى عصره . .

أسباب ولا أسباب

على أن الأسباب التى ذكرت للحادثين جميعاً لا تزال فى حاجة إلى إعادة نظر . . لأنها إما أسباب مزعومة يراد بها غير ظاهرها أو يجتهد بها المجتهدون بغير روية فى مواردها ومصادرها ، وإما أسباب صحيحة ولكنها لم تفعل فعلها إلا لاقترانها بأحوال تلك الفترة ، ولو جاءت فى فترة أخرى لما كان لها ذلك الأثر . .

خذ لذلك مثلا أسباب الفتنة كما ذكرها معاوية لابن الحصين . . سأله حين وفد عليه : «ما الذى شتت أمر المسلمين وخالف بينهم ؟» . قال ابن الحصين وكأنه أراد أن يوافق هواه : «قتل الناس عثمان !» . قال معاوية : «ما صنعت شيئاً» فعاد ابن الحصين يقول : «فمسير طلحة والزبير وعائشة وقتال على إياهم» . قال معاوية مرة أخرى : «ما صنعت شيئاً» . فقال الرجل : «ما عندى غير هذا يا أمير المؤمنين» . قال معاوية : «فأنا أخبرك إنه لم يشتت بين المسلمين ولا فرق أهواءهم إلا الشورى التى جعلها عمر إلى ستة نفر ، وذلك أن الله بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، فعمل بما أمره الله به ثم قبضه الله إليه وقدم أبا بكر للصلاة فرضوه لأمر دنياهم إذ رضيه رسول الله ﷺ لأمر دينهم ، فعمل بسنة الرسول وسار بسيرته حتى قبضه الله ، واستخلف عمر فعمل بمثل سيرته . ثم جعلها شورى بين ستة نفر ، فلم يكن منهم رجل إلا رجاها لنفسه ورجاها له قومه . . ولو أن عمر استخلف عليهم كما استخلف أبو بكر ما كان فى ذلك اختلاف» .

كذلك روى ابن الحصين عن معاوية ، وجاء أناس من ذوى النظر فى الحكمة والتاريخ فقالوا بما قال به معاوية ومنهم محمد بن سليمان المتفلسف فيما رواه عنه ابن مكى الحاجب . قال ما فحواه إن اختيار الستة من أهل الشورى ليكون الخليفة واحداً منهم بعد مقتل الفاروق قد جعل كلا منهم يشرئب إليها ويعلم أنه أهل لها ، وكان أشدهم عملا لها وكيدا لعثمان طلحة بن عبيد الله بن عثمان التيمى الملقب بطلحة الجود ، فهو من أبناء عمومة أبى بكر ، محبوب لسخائه وشجاعته وسبقه إلى الإسلام ، وكان ينافس عليها الفاروق فضلا عمن جاء بعده ، ويرى أن أبا بكر كان خليقاً أن يكلها إليه ، وأنه إذا فضل عليه عمر فليس بعد عمر من يفضله ، وأعانه الزبير لأن منافسة على وعثمان إذا وليا الخلافة أشق عليه من منافسة طلحة إذا هى آلت إليه .

وكان أناس من المجتهدين يتابعون محمد بن سليمان المتفلسف على هذا الرأى ، أو يتابعون معاوية بن أبى سفيان أول من قال به وذهب إلى تخطئة عمر فى ندبه لأهل الشورى ، ولم تزل منهم بقية فى عصرنا هذا ترى الحصافة والحكمة فيما قاله معاوية ، منهم الأستاذ محمد أحمد جاد المولى الذى كان كبيراً للمفتشين بوزارة المعارف ، فهو ينقل كلام معاوية فى كتابه «إنصاف عثمان» ثم يتبعه قائلا إنه رأى «الحصيف المجرب الذى حلب الدهر أشطره وغلب برأيه ودهائه صاحب الحق على حقه ، وأقام دولة الإسلام على تخوم دولة الروم موطدة الأكناف قوية الدعائم ، وحاش لعمر أن يتهمه أحد فيما فعل ، فإنه لم يرد إلا الخير للمسلمين جاهدا ، وكان أعظم ما يرجوه من ذلك ألا يكون خلاف وافتراق بين المسلمين . . وأكبر الظن عدنا أن عمر لو كان فى حال غير هذه فربما فضل أن يريح المسلمين من العناء والمناوشات الحزبية ويعهد إلى من هو أهل للخلافة ، فقد يجد الناس لهذا التعيين حرمة تسكت الألسنة والدولة لا تزال فتية ، أعدى أعدائها الشقاق والانقسام . .» .

هذا سبب من أشهر الأسباب المذكورة ، تواتر القول به من أيام الفتنة إلى العصر الحاضر ، ولو كانت الأسباب التاريخية تهمل على قدر وهنها وظهور الغرض فيها لما ورد لهذا السبب ذكر على لسان بعد إفضاء معاوية به إلى أبى الحصين ، إلا أن يكون ذكره لتوهينه والكشف عن غرضه ، وهو مكشوف لا يجهد من يريد أن يلتفت إليه .

فمعاوية لم ينكر الشورى فى اختيار الخليفة إلا لأنه أجمع العزم على خطة ولاية العهد ورشح لها ابنه يزيد من بعده ، وما كان فى هذه الخطة حصافة ولا تجربة لأنها لم تلبث أن أوقعت الخلاف فى أقرب الأقربين إلى معاوية وساقتهم إلى تولية العهد اثنين بدلا من ولى عهد واحد ، ولم تحسم الخلاف بين بنى أمية فضلا عن حسم الخلاف بين قريش وبين سائر المسلمين . .

وقد قال الشعبى إن عمر لم يمت حتى كانت قريش قد ملته لقمعه رؤساءهم وحبسه إياهم بالحجاز خوفاً من فتنتهم بالدنيا وفتنة الدنيا بهم ، فإذا كانت هيبته فى حياته قد سكنت بهم عن الخلاف فهم مختلفون بعد موته لا محالة ، ولو أنه اختار للخلافة أحداً سماه لما اختار طلحة ولا الزبير لأنه لم يذكرهما فيمن تمناه للخلافة من الموتى ولا من الأحياء . فقال إنه كان يختار أبا عبيدة لو عاش لأنه

سمع رسول الله يدعوه أمين الأمة ، أو كان يختار سالما مولى أبى حذيفة لو عاش لأنه رأى رسول الله يقدمه للصلاة بالمهاجرين . فلما سمى من يحسبهم مرشحين للخلافة من الأحياء علياً وعثمان ولم يجاوزهما إلى غيرهما من الستة أصحاب الشورى . فقال لعلى : «اتق الله ياعلى إن صارت إليك ، ولا تحمل بنى هاشم على رؤوس الناس» وقال لعثمان : «اتق الله يا عثمان إن صارت إليك ، ولا تحمل بنى مُعيْط على رؤوس الناس» وما نحسبه سكت عن طلحة إلا عامدا وعلى علم بأن اتفاق الستة لا يجمعون عليه ، وتقية أن يظن ظان أنها وقفت على بنى تيم ، ويقيناً منه أن اتفاق الستة على واحد أحرى أن يلزمهم الطاعة لمن يتفقون عليه .

وإذا كان فى كلام معاوية لأبى الحصين حصافة ألمعية فتلك هى إشارته المقصودة إلى التفرقة بين أمور الدين وأمور الدنيا ، واعتباره أن تقديم النبى ﷺ أبا بكر للصلاة بالناس بمثابة الرضى عنه لأمور دينهم فأضاف الناس إليه الرضى عنه لأمور دنياهم ، ويصح من ثم أن يكون المرضى عنه لهذه غير المرضى عنه لتلك ، وهذا هو المدخل إلى ولاية الملك لأمثال يزيد وعقبه مع وجود من هم أفضل منه دينا من جلة الصحابة والتابعين . .

***

ونعدل عن الأسباب المزعومة أو الأسباب التى اجتهد بها المجتهدون إلى الأسباب الواقعة التى حدثت وكان لها أثر فى إهاجة الخواطر وتسويغ الانقلاب ، ومنها ما يتعلق بأمور الدين ومنها ما يتعلق بأمور الدنيا أو أمور الحكم والسياسة .

فمن الأمور التى تتعلق بالدين أن الخليفة الثالث زاد النداء فى الأذان لصلاة الجمعة ، وإنه أتم الصلاة فى منى وعرفة ، وكان النبى والخليفتان الأولان يقيمونها على القصر ، وقد صلاها عثمان نفسه فى أول خلافته ركعتين ، ومنها أنه جمع القرآن فى نسخة وأمر بإحراق ما عداها فى المدينة والأمصار .

ولم يكن عثمان ﷺ فى واحدة من هذه مستبيح حرام بل كان متحرجا غاية التحرج لدينه ، فقد زاد فى الأذان لكثرة عدد الناس واتساع المدينة ، وصلى صلاة المقيم لأنه اتخذ بمكة أهلا فتحرج أن يصلى صلاة المسافر وهو صاحب أهل فيها ، وقد كان جمعه القرآن الكريم حسنة من أجل الحسنات سبقه أبو بكر وعمر إلى

مثلها فحمد المسلمون صنيعهما وأنكره من أنكره منهم أولا ثم عادوا إلى قبوله بل ألفوه وأثنوا عليه .

قال عمر : إن القتل قد استحر بأهل اليمامة ، وأخشى أن يستحر بقراء الكتاب فى غيرها فيذهب ما حفظوه بذهابهم ، إلا أن يجمعوه ، وأشار على الخليفة الأول بجمعه ، فكانت مفاجأة نفر منها أبو بكر وجعل يقول : «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟» . فقال عمر : «هو والله خير» . قال أبو بكر : «نعم خير» . ولم يزل عمر يراجعه حتى شرح الله لذلك صدره . ثم أخذوا يتتبعون آى القرآن ويجمعونها من الرقاع والعسب والأكتاف وصدور الرجال ، حتى وجدوا من سورة التوبة آيتين عند خزيمة بن ثابت لم يجدوهما عند غيره ، وتم جمع الكتاب فى مصاحف عند طائفة من جلة الصحابة كالإمام على ، وعبد الله بن مسعود ، وزيد بن ثابت ومعاذ بن جبل ، وأبى بن كعب ، وجاء عثمان فسد ذرائع الخلاف ولم يأت بشىء من عنده غير تعميم المصحف فى جميع البلدان ليقرأه المسلمون على نسخة واحدة .

ولئن كان فى بعض هذه الأمور التى تتعلق بالدين مخالفة للمألوف لقد خالف عمر المألوف فى منع زواج المتعة وفى نقص الأعطية للمؤلفة قلوبهم وفى الإعفاء من حد السرقة فى عام المجاعة ، وفى تسوية الصفوف بالمسجد عند الصلاة ، وفى مسائل أكبر مما أحصوه على عثمان فلم يتحدث بها متحدث على سخط وتذمر فضلا عن الثورة وحمل السلاح .

***

ولا نطيل فى سرد الأمور «الدنيوية» التى قيل إنها هاجت الفتنة على عهد عثمان ، ومنها غلبة قريش على الأمصار وسيادة العرب على الأمم الأخرى ، وإقامة بعض الولاة الذين اتهموا فى تقواهم ، وبذل الأموال لذوى القرابة والنصراء .

فقد ثار الثوار ، فجاء الكوفيون يطلبون الزبير ، وجاء البصريون يطلبون طلحة وجاء المصريون يطلبون عليا وكلهم من صميم قريش ، وقد أقام معاوية ملكه بقريش والعرب ، وكان بذل الأموال لذوى القرابة والنصراء عماد دولته ووسيلته إلى تأسيس بيته وبسط سلطانه .

ومن الولاة الذين أنكر الثائرون ولايتهم لاتهامهم بشرب الخمر الوليد بن عقبة ،

وقد حده عثمان بعد استماعه للشهادة عليه ، ولم تكن ولايته على عهد عثمان بل ولاه عمر على الجزيرة واختاره عثمان لولاية الكوفة .

وسنرى ، بعد أنه ما من عمل نسب إلى الخليفة الثالث إلا حدث مثله من قبله فلم تنشب من أجله فتنة ، أو حدث مثله من بعده فلم تنشب من أجله فتنة ، بل لعله كان من دعائم الدولة وأساس السلطان .

ولهذا قلنا إنها أسباب ولا أسباب ، وإنها بين أسباب مزعومة يراد بها غير ظاهرها ، أو أسباب صحيحة ولكنها لم تفعل فعلها إلا لاقترانها بأحوال تلك الفترة ، ولو جاءت فى فترة أخرى لما كان لها ذلك الأثر ، لم ؟ . .

نعم ، لم والأسباب واحدة تختلف عواقبها بين هذه الفترة وغيرها ؟ .

ذلك أنها فترة جاءت بين الخلافة والمملكة ، فلا تستقيم فيها وسائل الخلافة ولا تستقيم فيها وسائل المملكة . . ومن هنا اضطراب الوزن ، واضطراب السخط والرضى ، وقياس الأمور فى وقت واحد بمقياسين مختلفين أو متعارضين . . ولعمر الحق ما من شيء يدل على أن الأحداث السياسية تبع للحالة النفسية ومقاييس الفكر والأخلاق كما يدل عليه تاريخ هذه الفترة فى صدر الإسلام بين خلافة الراشدين ودولة بنى أمية .

لقد كان الناس رعية «مملكة» يتصرفون فى معايشهم ومطالبهم كما يتصرف رعايا الممالك ويسومون ولى أمرهم أن يسوسهم سياسة الخلافة وينتظرون من الخليفة الثالث ألا يجرى فى أمر من الأمور على نهج ينحرف قيدَ شعرة عن نهج الخليفتين الأول والثانى ، وهم أنفسهم قد انحرفوا عن نهج رعايا الخليفتين أبعد انحراف .

ومما لا جدال فيه إن عثمان لم يكن بقوة أبى بكر وعمر ، ولكن عمر نفسه على قوته ومهابته قد أحس فى أخريات أيامه وطأة الاختلاف بين العهود فكان يقول فى دعائه : «اللهم كبرت سنى ، وضعفت قوتى ، وانتشرت رعيتى ، فاقبضنى غير مضيع ولا مفرط . .» .

فتكليف عثمان أن يستبقى الزمن حيث لا يبقى ضرب من تكليف الأيام ضد طباعها كما قال الشاعر الحكيم ، وقد أسلفنا الإشارة إلى ذلك فقلنا فى عبقرية الإمام أن عثمان «أحس بها فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجزين لا يرجع أحدهما إلا بالغلبة على نده وضده» .

وقلنا قبل ذلك : «إنه لابد من ملك أو خلافة ، ولن يكون ملك بأدوات خليفة ولا خليفة بأدوات ملك . . ولم يكن معاوية زاهداً فى الخلاف على عهد أبى بكر أو عمر أو عثمان ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه ، فلما جاء عصر الملك طلب الملك والملك يطلبه . .» .

ثم قلنا : «كيف يكون المخرج بين سياسة الملك كما يطلبها العصر وسياسة الخلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية ! . . أيفرق الأموال على رؤوس القوم وقادة الجند وطلاب الترف ، أم يلزمها عيشة النسك والشظف والجهاد ؟ وإذا حرمهم وتألبوا عليه مع خصمه أفهو الغالب إذن بمطالب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون ؟ وإذا أعطاهم ليبذخوا بذخ الملك الدنيوى وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنة النبوة . أفيستقيم له هذا «الدور» العجيب وهو فى جوهره متناقض لا يستقيم ؟» .

تلك هى العقدة التى استحكمت فى عهد عثمان ووجب أن تنقطع فى عهد على ومعاوية . .

وإعادة النظر فى جميع الأسباب والتبعات تعود بنا إلى نظرة فاصلة فى هذه المشكلة التى زادها نفر من المؤرخين إشكالا بما أضافوه إليها من الأسباب المختلقة والأسباب الصحيحة التى خرجوا بها على غير مخرجها .

فنحن فى الحادثين جميعاً بعد هذا أمام أسباب لا تفعل فعلها لو جاءت فى فترة أخرى ، ولعلها تفعل نقيض فعلها فتؤيد ولى الأمر ولا تخذله كما تأيدت دولة بنى أمية بالعطايا والعمائر وكان فيها خذلان عثمان ومشيرة مروان . .

وما لم تنقطع غاشية هذا اللبس وهذا الإبهام من تاريخ هذه الفترة فنحن نسلكها فى ضباب لا تبدو فيه الأشباح والصور على حقيقتها ، ومن ثم رجونا أن نبدأ السيرة وقد تبدد ما حولها من غواشى ذلك الضباب الكثيف ، وسنبدؤها من حيث تبدأ فى طريق لا يهمه اختلاط الأسباب ولا التعويل عليها مبتورة منفصلة الرؤوس والأذناب . .

الفصل الثاني

بين الجاهلية والإسلام

نشأ عثمان بن عفان فى أسرة أموية تنتمى إلى أمية جد أبيه ، وعند أمية يكثر الخلاف على سلسلة النسب بين أسرته والنسابين ، فلا تتفق الأقوال المتضاربة على قول حاسم .

يقول المقريزى فى رسالة النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم : «وقد كانت المنافرة لا تزال بين بنى عبد شمس بحيث إنه يقال أن هاشما وعبد شمس ولدا توأمين فخرج عبد شمس فى الولادة قبل هاشم وقد لصقت أصبع أحدهما بجبهة الآخر ، فلما نزعت دمى المكان فقيل سيكون بينهما أو بين ولديهما دم ، فكان كذلك .

«ويقال أن عبد شمس وهاشم كانا يوم ولدا فى بطن واحد ، كانت جباههما ملصقة بعضها ببعض ففرق بين جباههما بالسيف ، فقال بعض العرب : ألا فرق ذلك بالدرهم ؟ فإنه لا يزال السيف بينهم وبين أولادهم إلى الأبد» . .

وأمية هو فى تاريخ الأسرة ابن عبد شمس أحد التوأمين أو الأخوين ، ولكن بعض النسابين يقول إنه ربيب عبد شمس ، وإنه ابن جارية رومية وصلت إلى الحجاز مع ركب سفينة جنحت إلى الشاطئ ، ويفسرون بذلك أبياتاً منسوبة إلى أبى طالب يقول فيها :

قديما أبوهم كان عبدا لجدنا	بنى أمية شهلاء جاش بها البحر

ويفسرون به أيضاً قول الإمام على لمعاوية فى بعض كتبه «ليس المهاجر كالطليق ولا الصريح كاللصيق» . . وجاء فى ابن هشام أن عقبة ابن ذكوان بن أمية صاح حين أمر النبى بقتله : «أأقتل من بين قريش ؟» . فقال عمر بن الخطاب : «حَنَّ قدْحٌ[1] ليس منها» وهو مثل يضرب للقدح الدخيل فى الميسر ، وروى ابن هشام أيضاً أن النبى ﷺ قال حينئذ : «إنما أنت يهودى من أهل صفورية» ويقال فى

(١) القدح : السهم .

تفسير الحديث أن الأمة التى ولدت أباه كانت ليهودى من أهل صفورية ، ويقال غير ذلك مما يعسر الفصل فيه . .

ولكنه من الراجح الذى ينتهى به التاريخ إلى دور التحقيق أن التبنى وتدعيم العصبية به معهودان فى هذه الأسرة على نحو لم يذكر له مثيل فى الأسر الجاهلية الكبيرة ، ومما رواه الأصفهانى وابن أبى الحديد أن معاوية قال لدغفل النسابة : «أرأيت أمية ؟» .

قال : «نعم» قال : «كيف رأيته ؟» . قال : «رأيته رجلا قصيراً ضريراً يقوده عبده ذكوان» . قال معاوية : «ذلك ابنه أبو عمرو» . قال دغفل : «ذلك شىء تقولونه أنتم ، أما قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبده» .

***

وفى التاريخ الثابت بعد الإسلام أن أبا سفيان استلحق زيادا الذى كان يسمى بزياد بن أبيه أو بزياد بن سمية ، وكان معاوية يغضب على من ينكر هذا الاستلحاق ، فقال يزيد بن مفرغ يخاطبه :

أتغضبُ أن يُقال أبُوك عف	وترضى أن يقال أبُوك زان
فأقسم إن رحمك من زياد	كرحم الفيل من ولد الأتان

وروى البلاذرى من أخبار هذا الاستلحاق أن عثمان بن محمد بن أبى سفيان ولى المدينة بعد عمرو بن سعيد ، فعرض فى خطبته بسلفه وكان هذا حاضرا فى المسجد فنهض مغضبا وقال فيما قال لعثمان حفيد أبى سفيان :

«إننى لا يستنكر شبهى ولا أدعى لغير أبى» .

ويزيد المقريزى على ما تقدم من خبره إن أمية «صنع فى الجاهلية شيئاً لم يصنعه أحد من العرب : زوج ابنه أبا عمرو امرأته فى حياته» .

قال المقريزى : «والمقتيون[1] فى الإسلام هم الذين أولدوا نساء آبائهم واستنكحوهن من بعد موتهم . وأما أن يتزوجها فى حياته ويبنى عليها وهو يراه فإن هذا لم يكن قط . وأمية قد جاوز هذا المعنى ولم يرض بهذا المقدار حتى نزل عنها له وزوجها منه» .

(١) المقت : نكاح كان فى أيام الجاهلية وهو : زواج الرجل من امرأة أبيه .

ثم قال المقريزى : «وأبو معيط بن أبى عمرو بن أمية قد زاد فى المقت درجتين» . .

وندع ما جاء فى أنساب الأشراف وفى شرح نهج البلاغة من سائر هذه الأخبار عن استلحاق الأبناء ، فإن الحرص على تدعيم العصبية ظاهر فى هذه الأسرة مما ثبت من أخبارها فلا حاجة إلى الإسهاب فيه .

***

وكانت المنافرة شديدة بين أمية وهاشم إلى أيام الدعوة المحمدية ، يحفظ لنا الرواة أخباراً كثيرة منها قديمة وحديثة ، فمن أحداثها قبل الدعوة الإسلامية أن حرب بن أمية وعبد المطلب بن هاشم تنافرا إلى حكم من بنى عدى القرشى هو نُفيل جد الفاروق ، فقال نفيل لحرب : «أتنافر رجلا هو أطول منك قامة ، وأعظم منك هامة ، وأوسم منك وسامة ، وأقل منك لامة ، وأكثر منك ولدا ، وأجزل منك صفدا ، وأطول منك مذودا[1] :

أبوك مُـعـاهد وأبوه عفٌّ   وذادَ الفـيـلَ عن بلد حـرام

يشير إلى تعرض أمية للنساء ، ومنهن امرأة من بنى زهرة راودها فتصدّى له بعض قومها وأوشكت أن تكون من جراء هذا الخلاف فتنة بين قبائل قريش . .

وأقدم من هذه المنافرة منافرة أخرى بين هاشم وأمية تكلف فيها أمية أن يصنع صنيع هاشم ، وكان هاشم ـ واسمه عمرو ـ قد غلب عليه لقب هاشم لأنه تكفل بإطعام المعوزين من أهل مكة وجيرتها عام المجاعة ، فكان يهشم الثريد وينحر الإبل وتعهد الفقراء ، وفيه يقول شاعرهم :

عمرو الذى هشّمَ الثريدَ لقومه   ورجالُ مكة مُسنتُون عجافُ

فأراد أمية أن ينافسه فى الشرف ومحبة الناس إياه فعجز عن هذه المنزلة . فدعاه إلى المنافرة كعادتهم ، واحتكما إلى كاهن خزاعة بعسفان على خمسين ناقة تنحر بمكة وجلاء عشر سنين من جوار الحرم ، فقال الكاهن سجعا على أسلوب الكهان والمحكمين جميعاً يومئذ : «والقمر الباهر والكوكب الزاهر ، والغمام الماطر ، وما بالجو من طائر ، وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ، لقد سبق هاشم إلى المآثر ، أول منه وآخر ، وأبو همهمة بذلك خابر» .

وأبو همهمة الذى أشار إليه الكاهن هو حبيب بن عامر الذى خرج مع أمية ،

(١) مذودا : لسانا .

وينتهى نسبه إلى فهر بن مالك . وكأنما أراد الكاهن بذكره بما فى النسب الأول والآخر من سر هو به خبير . .

قال الرواة : فأخذ هاشم الإبل فنحرها وأطعم لحمها من حضر وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين . .

ويكاد التنافس بين العشيرتين أن يشمل كل مطلب من مطالب الحياة فشمل الفروسية ووسامة الذرية كما شمل الرئاسة ومفاخر السيادة . .

***

تنافس أمية وعبد المطلب على سباق للخيل ، وتراهنا على أن تُحَزَّ ناصية المسبوق سنة ويغرم عددا اختلفوا فيه من العبيد والإماء والإبل ، فسبق فرس عبد المطلب فرس أمية ، ودان أمية بسيادته عليه سنة ، وينقل ابن أبى الحديد فى شرحه لنهج البلاغة كلمة لعبد الله بن جعفر فى محضر معاوية جبه[1] بها يزيد وهو يفاخره فقال : «أتفاخرنى بحرب الذى أجرناه أم بأمية الذى ملكناه أم بعبد شمس الذى كفلناه ؟» .

ويقول الكلبى فى أبناء عبد المطلب : «كانوا إذا طافوا بالبيت يأخذون البصر» ، ورآهم عامر بن مالك فقال : «بهؤلاء تمنع مكة» . وغير هذه الصفة تقال فى أبناء حرب فلا يتصدى لنقضها أحد من الأمويين المتقدمين . .

ونحسب أن المنافسة بين العشيرتين كانت ضربة لازب ، لأن الاختلاف بينهما أعمق غورا من الاختلاف على الرئاسة ومناصب الشرف فيما اصطلح عليه عرف الجاهلية : كان اختلافا فى الخلق والطبيعة ، وكان بنو هاشم على ما ثبت من الروايات المتقدمة أقرب إلى الأخلاق المثالية الدينية ، وبنو أمية أقرب إلى الأخلاق العملية الدنيوية . وقد يتردد المؤرخ فى قبول بعض الروايات المتقدمة على علاتها ، ولكنه لا يحتاج إلى المشكوك فيه من تلك المرويات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلائق العشيرتين فيما أثر عنهم قبل الإسلام وبعد الإسلام ، ففى حلف الفضول قام بنو هاشم بالأمر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم ، وتخلى عنه بنو عبد شمس فلم يشتركوا فيه . . وحلف الفضول هذا هو الذى قال عنه النبى ﷺ : «لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلف الفضول . . أما لو دعيت به اليوم لأجبت ، وما أحب أن لى به حُمْر النعم وأنى نقضته» . .

(١) جبه : أى رده وضرب جبهته .

وخلاصة قصته أن رجلا يمانياً قدم مكة ببضاعة فاشتراها رجل فلواه بحقه وأبى أن يرد إليه بضاعته، فقام فى الحجر أو فى مكان على شرف وصاح يستغيث، وكان من أجل ذلك أن تعاهد أناس من بني هاشم وأحلافهم ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد إلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم، وعمدوا إلى ماء من زمزم فجعلوه فى جفنة وبعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه وشربوه . .

وقد أبى الأمويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول : «لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول» .

وإن طبيعتين يفصلهما هذا الفاصل من ذوات النفوس، لا جرم تتنافران وإن ضمهما بلد واحد، وإنهما فى البلد الواحد لأخلق بالتنافر من المتباعدين . .

هذه العجالة عما كان من المنافرة بين بنى هاشم وبنى أمية فى الجاهلية تدخل فى سيرة عثمان من مداخل شتى، وقل أن يمر بنا مبحث فى عمل من أعماله أو خلق من أخلاقه إلا كانت به عودة إلى تلك المنافرة .

فمنها نفهم أن فضل عثمان فى إسلامه لا يدانيه فضل أحد من السابقين المعدودين إلى الإسلام، إذ لم يكن منهم من أقامت أسرته بينها وبين النبى هذه الحواجز العريقة من المنافسة والملاحاة، وكلهم كان بينهم وبين الإسلام ما كان بين القديم عامة والجديد خاصة، ولم تبلغ عداوتهم أن تكون من عصبية اللحم والدم أو عصبية البيت كما كانت عداوة الأمويين للهاشميين، وليست هذه العداوة فى الجاهلية بالشىء الهين ولا بالعقبة المذللة . فقد رأينا رجلا من بنى عبد شمس كان يتمنى أن يشهد حلف الفضول فحماه أن يفعل ذلك خشية الخروج على قومه ببدعة لم يقبلوها ولم يشتركوا فيها، وهذا مع ما هو واضح من الفارق بين دعوة كحلف الفضول لا تنقض دينا ولا تغير عبادة ولا تميز أحدا من الداخلين فيها بشرف أو سيادة، وبين دعوة كالدعوة المحمدية تحطم كل صنم وتبدل كل عبادة وتثبت لبيت عبد المطلب شرفا لا يسمو إليه شرف بين الناس كافة، فضلا عن قريش وأمة العرب بكل من تشتمل عليه . .

وما تقدم من شواجر النزاع بين أمية وهاشم كاف للإبانة عن فضل عثمان فى

سبقه مع السابقين إلى قبول الدعوة المحمدية . إلا أن هذا الذى تقدم لم يكن شيئاً إلى جانب الشر الذى قوبل به النبى فى بيت عثمان نفسه وبين عمومته وقرابته من جملة الأمويين .

فالحكم بن العاص ـ عم عثمان ـ كان يتصدى للنبى ويشتمه ويمشى وراءه يحكيه فى مشيته ويخلج بأنفه وفمه، فقيل إنه عليه السلام التفت إليه وهو بهذه الحالة فلزمه ذلك الاختلاج، وقال فيه عبد الرحمن بن حسان وهو يهجو مروان ابنه :

إن اللعين أباك فارْم عظامه . . . إن تَرْم تَرم مُخلَّجاً مجنونا
يُضحي خَميصَ البطن مِنْ عمل التقى . . . ويظل مِنْ عمل الخبيث بطينا

وقد لبث على دخلة نفسه بعد إسلامه عام الفتح خوفا من القتل فكان يتطلع على النبى فى داره فرآه مرة فقال : «من عذيرى من هذا الوزغة!» ثم أمر ألا يساكنه بالمدينة، فأخرج مع بنيه إلى الطائف لا يدخل المدينة ما أقام فيها عليه السلام . .

ومنهم عقبة بن أبى معيط الذى كان يتربص بالنبى حتى يسجد فى صلاته فيلقى على رأسه سلا الشاء أو يطأ على عنقه الشريفة كما قال النبى فى يوم بدر : «إنه وطئ على عنقى وأنا ساجد فما رفعت حتى ظننت أن عينى قد سقطتا» . . وكان أحد الأسرى الذين قتلوا ببدر لشدة ما ابتلى به المسلمون من أذاهم قبل الهجرة، وفى بيت عقبة هذا أقام عثمان زمنا لأنه تزوج من أمه بعد موت أبيه فى صباه .

وتصدى للنبى عليه السلام كثيرون غير هذين من قرابة عثمان وخاصة أهله، ولم يدخل فى الإسلام أحد من بنى أمية قبله مع هذه العداوة فى أسرته كلها وفى خاصة قرابته منها . فله من فضل هذه السابقة ما ليس لأحد السابقين إلى قبول الدعوة المحمدية . .

ولما أسلم رضى الله عنه أخذه عمه الحكم فأوثقه رباطا وعذبه وأقسم لا يخلينه أو يدع ما هو فيه . فأقسم لا يدعنه أبدا، وصبر على العذاب حتى يئس منه عمه فأخلاه . .

وروى فى سبب إسلامه أن أبا بكر شرح له قواعد الإسلام وهداية الدين الجديد وأنس منه خشوعاً وتفكيراً فقال له : «ويحك يا عثمان، والله إنك لرجل ما يخفى عليك الحق من الباطل . ماهذه الأوثان التى تعبدها وقومك؟ أليست حجارة

لاتسمع ولاتبصر ولا تضر ولا تنفع؟» فراجع نفسه وقال : «بلى والله إنها لكذلك» فدعاه أبو بكر إلى لقاء النبى ولقيه فقال له عليه السلام : «يا عثمان! . . أجب الله إلى جنته» . قال عثمان : «فوالله ما ملكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية» . .

ومن المتواتر أن عثمان كانت له خالة اسمها سعدى بنت كريز تتكهن وتتعبد ، ونقل عنها أنها هنأته بإسلامه وزواجه ، فقالت :

هدى الله عثمان الصفى بقوله ... فأرشده والله يهدى إلى الحق

فبايع بالرأى السديد محمداً ... وكان ابن أروىَ لا يصد عن الصدق

وأنكحه المبعوث خير بناته ... فكان كبدر مازجَ الشمس فى الأفق

وينقل عنها غير ذلك أنها كانت طرقت[1] وتكهنت عند قومها فلما رأته بعد قيام النبى بالدعوة قالت :

أبْشر وحييت ثلاثا تترى ... أتاك خيرٌ وَوُقيتَ شراً

أنكحتَ والله حصانا زَهراً[2] ... وأنت بكر ولقيت بكراً

وافيتها بنت عظيم قدراً ... بنت نبى قد أشاد ذكراً

قال عثمان : «فعجبت من كلامها وسألتها : يا خالة! . . ما تقولين؟» . قالت : «يا عثمان! . . لك الجمال ولك اللسان ، هذا نبى معه البرهان ، أرسله بحقه الديان ، فاتبعه واهجر الأوثان» . واستزادها قائلا : «يا خالة! . . إنك لتذكرين شيئاً ما وقع ذكره فى بلدنا فأبينيه لى» . قالت : «محمد بن عبد الله رسول من عند الله جاء بتنزيل الله يدعو إلى الحق والهدى» .

ويقالُ إن عثمان إنما ذهب إلى أبى بكر بعد ما سمعه من خالته فرآه أبو بكر مفكرا فسأله وجرى بينهما بعد ذلك ما تقدم من النصيحة والاستجابة على ما اتفقت به الروايات .

ونحن نسقط من حسابنا ما روى من كلام الكاهنة ، لأنه ضعيف السند لا يبقى منه إلا أن خالة لعثمان كانت تتكهن وتتعبد ، وأن مسألة الدين فى بيته كانت شغلا شاغلا لمن يأخذه على العصبية والعناد أو يأخذه على العبادة والتقوى ، فما

(١) تتكهن وتضرب بالحصى والطراق هم المتكهنون . (٢) حصانا : عفيفة . (٢) الزهراء : ذات الوجه الأبيض .

تظن أن رجلا فى الثلاثين ــ وهى سنه عند إسلامه ــ كان يعصى آله جميعاً ويطيع شيخة عقاما لو لم يكن فى ضميره باعث مطاع إلى الإيمان بالدين الجديد .

وفى وسعنا أن نتخيل غضب قومه الأقربين من إسلامه ، فقد كان كأشد غضب لحق مسلما من قومه المقيمين على الجاهلية ، ولكنه مع هذا لم يمنع أناساً منهم أن يلوذوا به خوفاً على أنفسهم بعد هزيمتهم ، ولم يمنع أن يتشفع لهم عند النبى وصحبه ويسأله العفو عنهم ، وكذلك نرى أن تاريخ أمية فى الجاهلية يحضرنا عند تقدير فضل عثمان فى إسلامه ويحضرنا عند تقدير أعذاره وعلل أعماله التى أخذت عليه بعد ولايته الخلافة . فقد كان لتدعيم العصبية وتأليبها شأن قديم فى تاريخ هذه الأسرة ألجأها إلى استلحاق الأبناء من الموالى وإلى تزويج البنين من زوجات آبائهم أو الموالى من زوجات أوليائهم ، ولا ندرى على التحقيق م نعلل هذه العادة التى انفردوا بها أو كادوا ، إلا أنها قد تعلل بأن القوم لم يكونوا من الخمول بحيث يسكنون إلى خمولهم ولم يكونوا من العزة الراسخة بحيث يطمئنون إلى عزتهم ، وأنهم ــ وإن لم يعقموا ــ لم تشتهر عنهم غزارة الذرية فى الجاهلية ، ولا فى الإسلام ، وهذه سلسلة ولاية العهد أوشكت أن تنقطع فى كل بيت من بيوتهم ولى الخلافة بعد قيام الدولة الأموية ، وربما انقرض البيت فى جيل أو جيلين وبقى معاصروه من غيرهم عدة أجيال . .

وقد انتهت المفاخرة بعد الإسلام بين المسلمين من بنى أمية وبين بنى عبد المطلب ، فما من أموى مسلم كان يتعالى إلى مطاولة آل النبى بالنسب من جانب آبائه عليه السلام خاصة ، ولكنهم مع هذا ــ ولا استثناء لأصدقهم إسلاما كعثمان وصحابة النبى ــ قد كانوا يودون لو سمعوا عن أمية كلما سمعوا عن هاشم وبنيه . وتقدم أن معاوية سأل دغفلا النسابة عن أمية بعد سؤاله عن عبد المطلب ، وابن أبى الحديد يروى مثل هذا عن عثمان فى أيام خلافته ، وأنه رضى الله عنه تمنى رجلا يحدثه عن الملوك وسير الماضين فذكروا له رجلا بحضرموت ، فكان مما سأله عنه : أرأيت عبد المطلب؟ قال : «نعم رأيت رجلا قعدا أبيض طوالا مقرون الحاجبين بين عينيه غرة يقال إن فيها بركة ، وأن فيه بركة» . فعاد يسأله : أفرأيت أمية؟» قال : «نعم . . رأيت رجلا أدم دميما قصيرا أعمى يقال إنه نكد . وأن فيه نكدا» . قال عثمان : حسبك من شر سماعه وصرف الرجل . .

ولا ينبغى أن ينسى العذر حيث يذكر لفضل للرجل من سوابق آله وذويه . .

نشأته وشخصيته

ترجمة عثمان ترجمة سوية ، لا نستغرب من لاحقها بعد الإسلام شيئا مما نعلمه عن سابق سيرته قبل إسلامه ، وإذا فاجأنا بالغرابة لأول وهلة نستغربه من أثر المفاجأة ، ثم نعود إلى دواعيه فإذا هو مطرود لا غرابة فيه . .

نشأ في نعمة وعيش خفيض ، وكانت ولادته بالطائف أخصب بقاع الحجاز ، لست سنوات مضت من عام الفيل ، ولم يؤثر عنه أنه اختبر شظف العيش قط فى صباه أو طفولته . .

وهو ابن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، كان أبوه تاجرا واسع التجارة ، وكان يحمل قوافله إلى الشام على دأب الأكثرين من تجار بنى أمية ، وفى إحدى هذه الرحلات التجارية مات عن ثروة عظيمة ، وترك ابنه بين الصبا والشباب . .

وإذا صح ما جاء فى أنساب الأشراف للبلاذرى فقد كان عفان يعمل فى حياكة الثياب : «عفان أول حائك لثيابكم» . ولكننا نستبعد جداً أن يجمع الثروة من حياكة الثياب بيديه ، ومن الراجح إذن أنه كان يدير مصنعاً من مصانعها ، أو أنه عمل بها فى صباه ثم تحول عنها إلى التجارة . .

وأم عثمان هى أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس ، وأمها أروى البيضاء بنت عبد المطلب عمة النبى عليه السلام ، وقد سبق أن أختها تتكهن وتنقطع للكهانة ، ففى وراثته من جانب أمه جنوح إلى طبيعة التدين التى اشتهر بها عبد المطلب وآباؤه وبنوه .

ويروى كما جاء فى ابن الأثير أن عقبة بن معيط شكاه إلى أمه ــ وكان قد تزوج بها بعد وفاة عفان ــ فقال لها : إن ابنك قد صار ينصر محمداً . فلم تنكر ذلك من ابنها وقالت : «ومن أولى به منا؟ . . أموالنا وأنفسنا دون محمد» . .

وقد كان مألوفاً فى الجاهلية أن تتزوج المرأة بعد تطليقها من زوجها أو بعد وفاته ، ولكن هذه العادة المألوفة لا تمنع أن ينقبض لها الابن وأن ينكسر لها بينه وبين نفسه ، فيلازمه منها بعض الخجل ولا يرتاح إليها بأية حال . .

ويبدو من دراسات علم النفس الحديث أن «مشكلة الأب» قد تمكنت من طوية

الصبى فكان لها فعلها فى توجيه شعوره من ناحية ذويه ومن ناحية البيئة بأسرها ، فضاعفت ما فى وراثته الأموية من الإيواء إلى ذوى قرباه ، وهيأت نفسه للنفور من الوضع القائم فى البيئة ، فلم يصعب عليه أن ينكر الأوضاع القائمة فى نطاقها الأعم الأوسع ، وهو نطاق الشعائر الجاهلية . .

ذلك أنه نشأ وهو يحس أن رب البيت الذى نشأ فيه غاصب ينتزع مكان أبيه ، فتمكنت من نفسه الريبة فى الأوضاع القائمة ، ولم يحتملها إلا على مضض الكاره وترقب المتربص ، وبخاصة حين تأتى من ناحية الأم التى تتمثل لابنها فى هذه الحالة كأنها مغلوبة على أمرها منتزعة ممن هو أحق بها . .

وقد أسلفنا أننا لا نعول كثيرا على الرواية التى تعود بإسلام عثمان إلى نصيحة خالته الكاهنة ، فليس فى كلامها مقنع للفكر يحول رجلا فى الثلاثين عن دينه وتراث بيته ، ولكنها على هذا تدل على داعية من الشعور لا نهملها ولا نستبعد مكانها من السريرة الباطنة ، ويعززها أن أسرة أمه كانت لا تخلو من عطف قوى نحو صاحب الدعوة إلى الدين الجديد : عطف يبدو من قول أمه : «أموالنا وأنفسنا دون محمد» وهى كلمة لا ينبغى أن ننساها فى مواطن كثيرة من سيرة ابنها رضوان الله عليه . .

ونقرأ وصف عثمان على ألسنة معاصريه فنراهم مجمعين على صفتين لم ينسهما أحد منهم ، وهما الجمال والحياء . .

كان ربعة لا بالقصير ولا بالطويل . حسن الوجه ، مشرف الأنف ، بوجنتيه نكتات من آثار الجدرى ، رقيق البشرة ، أسمر اللون ، كثير الشعر ، له جمة أسفل أذنيه ، وبه صلع مع طول فى لحيته وغزارة فى عارضيه . .

وكان خفيف الجسم ، ولكنه لم يكن بضعيفه ولا معروقه ، بل كان ضخم الكراديس بعيد ما بين المنكبين . .

أما خلائقه فقد أجمع واصفوه على أنه كان عذب الروح حلو الشمائل محبباً إلى عارفيه ، ومن ذاك أن نساء قريش كن يرقصن أطفالهن فيقلن :

أحـــبك والرحـــمن ... حبَّ قــريش عــثمــان

وكان يوتد أسنانه بالذهب ، ويخضب لحيته ، وربما تركها بغير خضاب . .

وفى كتاب «الرياض النضرة» يروى المحب الطبرى عن عمرو بن عثمان أن عثمان

ابن عفان قال : «كنت رجلا مستهتراً بالنساء ، وأنى ذات ليلة بفناء الكعبة فى رهط من قريش إذ أتينا فقيل لنا أن محمداً قد أنكح عتبة بن أبى لهب رقية وكانت رقية ذات جمال رائع .

قال عثمان : فدخلتنى الحسرة لم لا أكون أنا سبقت إلى ذلك ، فلم ألبث أن انصرفت إلى منزلى فأصبت خالة لى قاعدة وهى سعدة بنت كريز ، وكانت قد طرقت وتكهنت عند قومها فلما رأتنى قالت : «أبشر وحييت ثلاثا تترى . . إلى آخر الأبيات ، وروى ما تقدم من حديثها فى غير هذا الفصل إلى قوله : «وكان لى مجلس عند أبى بكر فأتيته فأصبته فى مجلس ليس عنده أحد ، فجلست إليه فرآنى مفكراً فسألنى عن أمرى – وكان رجلا متأنياً فأخبرته بما سمعت من خالتى ، فقال : «ويحك يا عثمان إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل» . ثم قال : فما كان أسرع من أن مر رسول الله ﷺ ومعه على بن أبى طالب يحمل ثوباً فلما رآه أبو بكر قام فساره فى أذنه بشئ ، فجاء رسول الله ﷺ ثم أقبل على فقال : «يا عثمان!! . . أجب الله إلى جنته فإنى رسول الله إليك وإلى خلقه» . قال : «فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله» . .

وتتكرر قصة كهذه فى كتاب الإصابة لابن حجر العسقلانى ، وهى قصة يلاحظ عليها أن زواج السيدة رقية من عتبة بن أبى لهب قد كان قبل البعثة النبوية ، فلما بعث النبى قال أبو لهب لابنه : «رأسى من رأسك حرام إن لم تطلق ابنته ، ففارقها ولم يكن دخل بها» . .

فلا يبقى من هذه القصة ما يستبقى للتعريف بخلائق عثمان إلا قوله عن نفسه أنه كان فى الجاهلية مستهتراً[1] بالنساء ، ولو لم يرد حديث هذه القصة فى رواية من الروايات لما علمنا قط أنه كان كذلك فى الجاهلية ، لأن أحداً من معاصريه فى الجاهلية لم يشهده على حال يحسبها من الاستهتار بالنساء ، فإنهم كانوا يبيحون كثرة الزوجات لمن استطاع أن يجمع بينهن ، وإنما نعرف من هذه القصة خلائق عثمان بنعمته وحيائه ، وبقدرته على المتعة والتعفف عما يشينه منها ، وبالخلق الذى لازمه طول الحياة ، وهو خلق ربيب النعمة الكريم . .

روى عمرو بن أمية الضمرى قال : «إنى كنت أتعشى مع عثمان خزيرا من طبخ

(١) مستهتراً بالنساء : أى مولعاً بهن .

من أجود ما رأيت ، فيها بطون الغنم وأدمها اللبن والسمن فقال عثمان : كيف ترى هذا الطعام؟ فقلت : هذا أطيب ما أكلت قط . فقال : يرحم الله ابن الخطاب . أكلت معه هذه الخزيرة قط؟ قلت نعم ، فكادت اللقمة تفرث بين يدىّ حين أهوى بها إلى فمى وليس فيها لحم ، وكان أدمها السمن ولا لبن فيها . فقال عثمان : صدقت : صدقت! . . إن عمر رضى الله عنه تعب والله من تبع أثره ، وأنه كان يطلب بثنيه – أى منعه – عن هذه الأمور ظلفا – أى غلظا – فى المعيشة . ثم قال : أما والله ما آكله من مال المسلمين ولكنى آكله من مالى ، وأنت تعلم أنى كنت أكثر قريش مالا وأجدهم فى التجارة ، ولم أزل آكل من الطعام مالان منه وقد بلغت سنا ، فأحب الطعام إلى ألينه ، ولا أعلم لأحد على فى ذلك تبعة» . .

ودخل زياد على عثمان فى خلافته بما بقى عنده لبيت المال ، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئاً من فضة ومضى به ، فبكى زياد . . قال عثمان : «ما يبكيك؟» . قال : «أتيت أمير المؤمنين عمر بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهما ، فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام ، وإن ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ ، فلم أر أحداً قال له شيئاً» . قال عثمان : «إن عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله ، وإنى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله . . ولن تلقى مثل عمر ، لن تلقى مثل عمر . . لن تلقى مثل عمر . .» .

وقد سُمع غير مرة يقول : «يرحم الله عمر ، من ذا يطيق ما كان يطيقه»!

***

وصفوة القول فى خلائق عثمان أنه كان إلى صفات الطيبة والسماحة أقرب منه إلى صفات البأس والصرامة ، وأن نشأة العيش الخفيض صحبته فى صباه إلى شيخوته ، وفى غير تبعة عليه كما قال . .

اختصم يوما هو وأبو عبيدة بن الجراح فقال أبو عبيدة : «أنا أفضل منك بثلاث» ، فسأله عثمان : «وما هن؟» . قال : «الأولى إنى كنت يوم البيعة حاضرا وأنت غائب ، والثانية شهدت بدرا ولم تشهده ، والثالثة كنت ممن ثبت يوم أحد ولم تثبت أنت» ، فلم يغضب عثمان ولكنه قال له : «صدقت» . ثم أجابه معتذرا فقال : «أما يوم البيعة فإن رسول الله ﷺ بعثنى فى حاجة ومد يده عنى وقال : هذه يد عثمان بن عفان وكانت يده الشريفة خيراً من يدى . وأما يوم بدر فإن رسول الله ﷺ استخلفنى على المدينة ولم يمكننى مخالفته ، وكانت ابنته رقية مريضة

فاشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفنتها ، وأما انهزامى يوم أحد ، فان الله عفا عنى وأضاف فعلى إلى الشيطان ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ . .

والحق أن تخلف عثمان عن يوم البيعة وعن يوم بدر لم يكن باختيار منه ولم يكن فيه إحجام عن خطر مخوف ، بل تخلف فى اليومين طوعا لأمر النبى عليه السلام ، أما يوم «أحد» فقد انهزم معه فيه كثيرون من شجعان الصحابة ، وكانت الهزيمة فيه صدمة من صدمات البغتة التى يكاد النكوص فيها أن يكون دفعة آلية ثم يثبت الجأش بعد الصدمة الأولى كما حدث من أكثر المنهزمين فى ذلك اليوم العصيب .

بيد أن المعارك الأخرى لم تحفظ لعثمان موقفاً من تلك المواقف النادرة التى تتناقلها الألسنة ويتساير بها الركبان من أخبار زملائه الخلفاء ، فإن كان فيها غير متخلف ولا محجم فليست هى بفخره الأول وفضيلته العليا . إنما كانت فضيلته العليا السخاء حيث يعز السخاء على أمثاله من ذوى الثراء ، ولاسيما ذوى الثراء من بنى أمية الذين ضنوا بأموالهم فى الجاهلية والإسلام إلا لمطمع أو مصلحة ، وهذه هى آية العقيدة فى مناقب عثمان . .

لقد أشربت النفوس من العقيدة الجديدة غيرة لا عهد لها بمثلها فى التنافس بين أكفائها : غيرة فى العقيدة وغيرة لها وغيرة عليها ، فجمعت من معانى الغيرة أشرفها وأصدقها وأبعدها عن التنازع بين الناس بالباطل والتلاحى بينهم بالعرض الزائل ، إذ كانت تجمع من معانى الغيرة الشريفة غيرة الحماسة للعقيدة وغيرة التنافس عليها وغيرة الصدق فى منافستها ، وأشرف ما فى هذه الغيرة الشريفة أنها لم تكن تغرى أحدا بغمط حق لأحد ، أو بادعاء حق لا يؤمن به من يدعيه فى قرارة ضميره ، لأنها لم تكن غيرة العرف الظاهر قصاراها الوجاهة عند الناس ، بل كانت الوجاهة عند الله قصاراها ومبدأها ومنتهاها ، فلا يدعيها مدع بالباطل ، ولا يأمن إذا ادعاها بالباطل أن تذهب جميعـاً فلا تبقى لها عنده ولا عند الناس أو عند الله باقية . ومن ثم كانت غيرة بناء وصدق ولم تكن غيرة هدم وادعاء .

ومضى الناس يتنافسون ، ويؤمرون أن يتنافسوا فى مثل هذا الفضل فهم فيه متنافسون مجدون وقد رأينا كيف كان أناس فى رجاحة أبى عبيدة وعثمان يتعارفون

على هذا التنافس الذى لا يخجل فيه أخ من أخيه ولا صديق من صديقه . فلا ينقم مسبوق على سباق ، ولكنه يغبطه ويستحث عزائمه على سبقه ما استطاع . .

وهكذا نظر عثمان إلى أكفائه فوجد أنه لم يسبقهم فى ميادين الجهاد بالسيف فآلى على نفسه ليسبقنهم فى ميادين الجود والسخاء ، وثابر على ذلك من أول أيامه فى الإسلام إلى ختام أيامه فى الحياة ، فهاجر إلى الحبشة وهو يعلم أن ماله كله عرضة للضياع من جراء هذه الهجرة ، فلم يبال ما بقى منه وما ضاع ، وتقدم فى كل محنة أصابت المسلمين من فاقة أو قحط أو نقص فى السلاح والعتاد ، فبذل من المعونة والعطاء مالم يبذله أحد من أمثاله فى ثرائه ، وما لم يبذله الذين هم أقدر منه على معونة أو عطاء ، ولم يكن على أية حال بأغنى الأغنياء .

وكانت له سماحة محببة حيث يجود ويتكلم بكلام التجار فى مساواتهم وهو على غاية الجود . .

قال ابن عباس : «قحط الناس فى زمن أبى بكر ، فقال أبو بكر لا تمسون حتى يفرج الله عنكم ، فلما كان من الغد جاء البشير إليه فقال : لقد قدمت لعثمان ألف راحلة برا وطعاما ، فغدا التجار على عثمان فقرعوا عليه الباب فخرج إليهم وعليه ملاءة قد خالف بين طرفيها على عاتقه ، فقال لهم ، ما تريدون؟ قالوا : بلغنا أنه قدم لك ألف راحلة برا وطعاما . بعنا حتى نوسع على فقراء المدينة ، فقال لهم عثمان ادخلوا! فدخلوا فإذا ألف وقر قد صب فى الدار ، فقال لهم : كم تربحونى على شرائى من الشام؟ قالوا : العشرة اثنى عشر . قال : قد زادونى . قالوا العشرة أربعة عشر . قال قد زادونى . . قالوا : العشرة خمسة عشر . قال : قد زادونى . . قالوا : من زادوك ونحن تجار المدينة؟ . .

قال : زادونى بكل درهم عشرة . . هل عندكم زيادة؟ . . قالوا : لا . . قال : فأشهدكم معشر التجار أنها صدقة على فقراء المدينة» . .

ويشير عثمان هنا ـ كما هو ظاهر ـ إلى جزاء الحسنة بعشرة أمثالها عند الله ، ولن تعدم فى هذا المقام ابتسامة سخف على فم متحذلق يقول : أما أعطى وهو ينتظر الجزاء فى الآخرة . .؟ فلقد آمن بالآخرة ألوف من ذوى الأموال التى لا تفنى ، وهم لا يبضون بدرهم يوقنون من جزائه ما أيقنه عثمان . .

وكان يدخل عرف الإحسان فى صفقات التجارة ، وهى تلك المعاملة التى اصطلح الناس قديما على أنها شىء يتقدم فيه حساب المنفعة على حساب المودة بل

القرابة ، ومن يعبرون اليوم عن هذا المعنى ويقولون باصطلاح العصر من يعبرون عن معنى قديم تفاهم عليه المتعاملون بالبيع والشراء من أقدم الأزمنة ، فقيل من أخباره فى هذه الخصلة أنه ابتاع حائطاً ـ أى بستاناً ـ من رجل ، فساومه حتى قام على عثمان فالتفت عثمان إلى عبد الرحمن بن عوف فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول إن الله عز وجل أدخل الجنة رجلا كان سمحا بائعاً ومبتاعاً وقابضاً ومقبضاً ، ثم زاد البائع العشرة آلاف .

وأسعدت شمائل السماحة فيه بخصال أندر فى أبناء النعمة من خصال الكرم والإحسان ، فقد يهون على المرء أن يتجرد من بعض ماله ولا يهون عليه أن يتجرد من بعض كبريائه وخيلائه وتعاليه على أنداده ونظرائه فضلا عمن يعلوهم بالبسطة والجاه ، وكان المأثور عن عثمان كما روى صاحب الصفوة عن مولاة له أنه «كان لايوقظ أحدا من أهله إلا أن يجده يقظان فيدعوه» .

وروى الحسن أنه «رآه نائما فى المسجد ورداؤه تحت رأسه فيجىء الرجل فيجلس إليه ، ثم يجىء الرجل فيجلس إليه ، كأنه أحدهم» .

وربما أحرج كما يحرج أصحاب الحياء حين يجترئ على حيائهم من هو أولى بتوقيره فيبدر منه بعض ما يسوء مخاطبه ثم لا يلبث أن يندم على بادرته ويتوب إلى الله ، ومن قبيل ذلك غضبه على عمرو بن العاص حين واجهه بالزجر وهو يخطب الناس ، فثارت ثورته أن يكون هو من يعظه عمرو بمثل ذلك الكلام وما فيه من إغراء بالفتنة عليه قال عمرو : يا عثمان إنك قد ركبت بالناس النهابير[1] وركبوها منك ، فتب إلى الله عز وجل ليتوبوا . . فالتفت إليه مغضباً وأجاب قائلا : وأنت هناك يا ابن النابغة؟ ثم لم يلبث أن رفع يديه وقال : أتوب إلى الله تعالى . ثم كررها فقال : اللهم إنى أول تائب إليك .

فهذه شخصية سمحه ، تساندت فيها مناقب السماحة ، وأوشكت أن تستوفيها على مثال منقطع النظير فيمن عرفناهم من الأعلام بين الجاهلية والإسلام : كرم وحياء ودعة ورفق وأريحية ومروءة تعين على المروءات . فهل يقال على هذا إنها شخصية سمحة وكفى! هل يقال إنها شخصية خلت من صفات البأس والصرامة ، أو كان حظها من هذه الصفات ضئيلا لا يلتفت إليه؟ هل يقال إنها شخصية ضعيفة بكلمة متيقنة لا تردد فيها؟

(١) الرمال المشرفة .

من السهل أن يقال ذلك متابعة لجمهرة المؤرخين الذين درجوا على تعليل الحوادث الجلى فى عصر عثمان بضعفه واستسلامه لمن حوله ، وعلى رأسهم ابن عمه مروان بن الحكم . . فإن السهولة هنا توحى إلى المؤرخ أن يختار سبيلها ويعفى نفسه من النظر إلى طريق غيرها قد يعترضه فيها اعتراض من حيث لا اعتراض على سالك السبيل السهل الذلول .

لكن القول بضعف عثمان صعب على من يعلم أن السماحة نفسها قوة لا يضطلع بها طبع ضعيف ، وصعب على من ينظر فى أعماله جميعاً ولا يكتفى منها بأعماله التى يبدو عليها الضعف والتردد ، ولم يكن عهد من عهود سيرته يخلو من عمل يدل على قوة نفس ومناعة خلق وثبات لا يتزعزع أمام الهول والخطر ، وحسبنا من عهود سيرته ما أحاطه بأطرافها من أول إسلامه إلى ختام حياته . فقد كان إسلامه تحدياً قوياً لخاصة أهله ثبت عليه مع بقاء العلية من قومه بين عدو للإسلام أو مسالم له على دخل وسوء نية ، وقد تلقى فى أول خلافته صدمات لم يتعرض الفاروق لأخطر منها فى جميع أيامه ، ومنها هزيمة الجيوش وفناء بعضها بين عوارض الأجواء القصية وانقضاض الروم والخزر على أطراف الدولة الإسلامية الحديثة ، وبعض مواقفه فى تلك الأيام لا يمكن الرجوع به إلى رأى مروان بن الحكم ، كوصاياه فى إعداد الحملات البحرية من المتطوعين بغير إكراه على أحد من الجندين ، وليس من السهل أن يوصف بالضعف رجل يحيط به خطر الموت من كل جانب ولا يذعن لمن توعده به جهرة وردده على مسمعه ليل نهار .

كلا . . لا يقول القائل عن رجل كهذا إنه ضعيف ، ثم يستريح إلى قولته ، إلا أن يبتغى الراحة ولا يبتغى سواها .

ولكنا نحسب أن مكان عثمان من القوة والعزيمة هو المكان الذى يحتاج إلى التوضيح ، ولا يتضح لأول نظرة فى سيرته وحوادث عصره ، فليس هو بالمكان الذى يتراءى على القرب والبعد كأنه العلم البين الغنى عن التوضيح .

***

من الناس من يقتحم طريقه ولا ينتظر من يدله أو يدفعه بل لعله يقتحمه ويصر على اقتحامه كلما كثر المعارضون له وقل من يدلونه عليه ، ومن شأنه أن يحسم تردد المترددين.واعتراض المعترضين فلا يلبث أن يقودهم معتزماً فينقادوا له معتزمين .

ليس عثمان من هؤلاء . .

ومن الناس من لا يعرف العزم تابعاً أو متبوعاً ولا يثبت عليه إذا عرفه إلا ريثما يدفعه الخطر عنه ، وقد ينثنى عن عزمه بغير خطر لأنه من الوهن والعيّ بحيث لا يقوى على الثبات . .

وليس عثمان من هؤلاء . .

فليس هو مقتحماً ولا هو منقادا عاجزا عن العزم والثبات ، ولكنه وسط بين الاقتحام والانقياد لغيره فى جميع الأحوال . .

إنه ينقاد ويسوغ انقياده لنفسه بمسوغ ترضاه ، ولابد له من المسوغ المرضى فى جميع الأحوال . .

هؤلاء أيضاً يختلفون فى مسوغ الانقياد للآخرين ، فمنهم من ينقاد لمن هم أكبر منه ويأبى الانقياد لمن هم مثله أو دونه فى المنزلة ، ومنهم على نقيض ذلك من ينقاد لمن هم أنداده أو ينقاد لمن هم دونه ، ويأبى الانقياد للنظراء والرؤساء . .

ومسوغ الأولين الذين ينقادون لمن هم أكبر منهم أن الانقياد للأكبر طبيعة فى كل علاقة بين رئيس ومرؤوس ، ويدين بهذا المسوغ من لا حق له فى الرئاسة أو من لا مطمع له فيها على الأقل إلى حين ، فقد يكون صغيرا يرجو أن يكبر ، أو خاملا يرجو أن يعرف ، أو مبتدئا يرجو أن ينتهى إلى العظمة كما انتهى إليها من يعظمهم من الرؤساء .

أما مسوغ الآخرين الذين ينقادون لمن هم أنداد لهم أو من هم دونهم فهو أنهم أمنوا أن ينسب انقيادهم إلى ذلة أو خوف ، وبخاصة حين يكون المنقاد معروف الوجاهة والرئاسة ، مساوياً لمن يدله ويشير عليه ، أو راجحا عليه بالمكانة والسلطان .

وكذلك كان عثمان فى اهتدائه إلى الإسلام بنصيحة أبى بكر الصديق فقد كان عثمان أجمع لأسباب الوجاهة من أبى بكر فى عرف عصره : كان من أمية وأبو بكر من تَيْم ، وكان أغنى منه وأقدر على مخالفته ، وكان أبو بكر إلى جانب هذا وذاك يدعوه إلى الإيمان برسول يتبعانه معا فيقبل إن شاء ، ويأبى إن شاء ، ولا سلطان له عليه . .

وكذلك كان عثمان فى إصغائه لمروان بن الحكم حيث أصغى إليه ، فقد كان مروان كاتبه وتابعه ، وكان إصغاؤه له لغير خوف أو مذلة ، وعلما منه بأنه محسوب عليه .

وسماحة عثمان واضحة هنا أيضاً لأنها فرض كفروض الحساب لا يتأتى بغيره تقدير الحقيقة الملتبسة . فمن الناس من يأبى الانقياد للأنداد والرؤساء حسدا ونكدا ومن يأبى الانقياد للأتباع والأعوان تيها وتجبرا وذهابا مع شهوة الترفع والاستعلاء ، فهؤلاء كأولئك لا يعرفون السماحة ولا يوصفون بها ، ولو لم يكن عثمان سمحاً مبرأ من الحسد والنكد ومن شهوة الترفع والاستعلاء ، لما أصغى إلى ند ولا إلى تابع ، ولا سوغ الإصغاء إليهما بمسوغ من المسوغات ترضاه نفسه وتطمئن إليه .

من أشد ما يروى استدلالا على ضعفه وانقياده لرأى مروان بن الحكم قصة رواها ابن عباس عن أبيه وهو ثقة فيما عاينه وحكاه . قال :

«ما سمعت من أبى شيئا قط فى أمر عثمان يلومه فيه أو يعذره ، وما سألته عن شيء من ذلك مخافة أن أهجم منه على مالا يوافقه ، فأنا عنده ليلة ونحن نتعشى إذ قيل : أمير المؤمنين بالباب . فقال : ائذنوا له ، فدخل فأوسع له على فراشه وأصاب من العشاء معه ، فلما رفع قام من كان هناك وثبت أنا : فحمد عثمان اللّه وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا خال فإنى قد جئتك أستعذرك من ابن أخيك على . . سبنى وشهر أمرى وقطع رحمى وطعن فى دينى ، وإنى أعوذ باللّه منكم يا بنى عبد المطلب . إن كان لكم حق تزعمون أنكم غلبتم عليه فقد تركتموه فى يدى من فعل ذلك بكم ، وأنا أقرب إليكم رحما منه ، وماملت أحدا منكم إلا عليا ولقد دعيت أن أبسط يدى عليه فتركته للّه والرحم ، وأنا أخاف ألا يتركنى فلا أتركه .

قال : «فحمد العباس اللّه وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا ابن أختى فإن كنت لا تحمد عليا لنفسك فإنى لا أحمدك لعلى ، وما على وحده قال فيك بل غيره ، فلو أنك اتهمت نفسك للناس اتهم الناس أنفسهم لك ، ولو أنك نزلت مما رقيت وارتقوا مما نزلوا فأخذت منهم وأخذوا منك ما كان بذلك بأس .

قال عثمان : «فذلك إليك يا خال ، وأنت بينى وبينهم» .

قال : «فأذكر لهم ذلك عنك؟»

قال : «نعم» وانصرف .

«فما لبثنا أن قيل : هذا أمير المؤمنين قد رجع بالباب فقال : ائذنوا له . فدخل فلم يجلس وقال : لا تعجل يا خال حتى أوذنك» .

«فنظرنا فإذا مروان بن الحكم جالسا بالباب ينتظره حتى خرج ، فهو الذى ثناه عن رأيه .

«فأقبل على أبى وقال : يا بنى! ما إلى هذا ـ يعنى عثمان ـ من أمره شىء» . .

فإذا أخذت هذه القصة على عجل فعثمان قد كان أداة لمروان يذهب به ويجىء كما يشاء ويمضيه على رأى أو يثنيه عنه على هواه .

ولكننا إذا تخيلنا عثمان على هذه الصورة وجب أن نسأل : من غير مروان كان يصنع بعثمان هذا الصنيع؟ فإن الرجل إذا كان هين المقادة إلى هذا الحد هان على كل موسوس له أن يقوده ، ولاسيما أقربهم إليه وألزمهم له من حرمه ومساكنيه فى داره . وقد عرفنا من تاريخ تلك الفترة أو ما قاربها أنه كان يستمع فى بيته إلى من يوغر صدره على مروان فلا يستجيب لتوغيره ، ومنهم نائلة بنت الفرافصة زوجته ، وقد كان للزوجات أثر فى قصور ذوى السلطان عن عرفوا بالقوة والسطوة لم ينقطع فى عصر من العصور .

فالطاعة هنا ليست بطاعة نفس ضعيفة لكل من يوسوس لها على مقربة منها ، ولكنها طاعة اختيار لسبب له شأنه عند عثمان وإن لم يكن له هذا الشأن عندنا نحن اليوم أو عند ناقديه من معاصريه .

ونحن على يقين أننا اليوم نتردد فى الجواب إذا سئلنا : «من غير مروان بن الحكم كان خليقاً أن يعمل لعثمان عمل الكاتب الوزير الذى يعمل له كأنه يعمل لنفسه فى سره وجهره» .

إننا نعرف رجال تلك الفترة المرشحين لمثل هذا العمل ، فمن منهم يتولاه إذا استغنى عن مروان؟

ليس مروان بأفضل من يكتب للخليفة فى عصره ، ولكن الذين هم أفضل منه لا يرتبطون بهذا العمل ارتباطه ولا يطالبهم عثمان بما يطالب به مروان من خدمته وولائه .

لقد ذهب عثمان إلى العباس يشكو عليا ويكاد يعم بالشكوى بنى عبد المطلب ، لأنه يحسبهم ذوى حق غلبوا عليه ، فإذا خامرته هذه الشكوى صوابا أو خطأ وخامرته فى أناس كبنى عبد المطلب على مثل ذلك الصواب أو ذلك الخطأ ، فهو لا يتخذهم وزراء كتبة يعملون له ويرتبطون بخدمته كارتباط مروان ومن إليه ، ولعله لو

لم يشكهم لا يخطر له أن يكلفهم عملا كعمل كاتبه ووزيره ، فإنهم فى مقام الأنداد ولهم شاغل عن عمل يرتبطون به إلى جواره .

ولا نقول إن عثمان لم يكن يستمع لمروان ، ولا إنه كان يستمع للصواب من رأيه ويعرض عن الخطأ منه ، ولكننا نريد أن نقول إن ما بينهما ليس بطاعة الضعيف يلعب به القوى ، وإنه اختار له سببه الذى يوضع فى ميزانه عند عثمان وغير عثمان حين يكون فى مكانه .

والسؤال الواجب على أية حال فى كل مقام كهذا المقام هو : «ماذا كان أجدر وأجدى من هذا؟» فإن كان الجواب قاطعاً فقد أمكن القطع بالخطأ ، وإن كان الجواب يحتمل رأياً هنا ورأياً هناك فليس التردد بينهما بالدليل حتما على الضعف والاستسلام .

واتباع عثمان لمشورة مروان أو لمشورة غيره ، لم يكن قط ذلك الاتباع الذى يعاب جملة أو يستحسن جملة ، ولم يكن طاعة المستسلم الذى لا يدرى فيم يستسلم ، ولكنه أشد ما يكون من قبيل الحيرة التى يشترك فيها سالكان لا يأمن أحدهما إذا ضل صاحبه ، ومن حار معك كما تحار أقرب إليك ممن يهتدى وهو فى طريق وأنت فى طريق .

ونعود فنقول إن شخصية عثمان بما اشتملت عليه من نواحى قوتها وضعفها شخصية سوية ، لا تناقض بين ما علمناه من أخبارها وأعمالها وبين ما نرجحه من المؤثرات فيها من فعل البيئة والعقيدة ، وقد ذكرنا بين مؤثرات البيئة وراثته الأموية ويتمه فى صباه ونشأته فى بيت يتولاه غير أبيه ، وانتماءه من جانب الأمومة إلى بيت عبد المطلب ، وعلينا أن نشير إلى مؤثر آخر يلحق بهذه المؤثرات ولا يورد على أنه مؤثر يتواتر فى جميع الحالات ، ولكنه يورد لأنه لا يهمل فى اعتبار بعض النفسانيين .

ذلك السبب هو إصابته بالجدرى فى شبابه . وعند بعض النفسانيين أن الجدرى يعقب أثرا فى بنية المصاب به إذا أهمل علاجه ـ بعد سن الطفولة خاصة ـ وليس إهمال علاجه يومئذ بالأمر البعيد .

أما أثر العقيدة فمن الواجب ونحن نتعرف معادن الشخصية الإنسانية أن نثبت من معاييره فى تقويم الأخلاق والتفرقة بين فاضلها ومفضولها ، ويجب هذا التثبت خاصة فى الزمن الذى يكثر فيه الخلط بين قيمة الفضيلة وبين التعريف بأسبابها ، فيعذر

بعض المقصرين أنفسهم أن يكونوا دون المؤمنين بالدين شجاعة وسخاء ، ويقولون إننا كنا خلقاء أن نقدم مثل أقدامهم ، ونسخو مثل سخائهم ، ونجود بالروح والمال مثل جودهم ، لو كنا ننتظر الجزاء فى اليوم الآخر أضعافاً مضاعفة من النعيم والسعادة .

وتلك فى الواقع خديعة الطبع اللئيم ، وإنهم ليزعمون أنهم يشجعون ويجودون لو آمنوا بالجزاء بعد الموت والواقع أنهم واهمون أو مغالطون ، وإن لهم أشباها صدقوا بالجزاء بعد الموت ولم يتركوا الجبن والشح ولا تركوا ما هو أقبح من الجبن والشح وهو السلب والغصب والعدوان على النفس والمال . .

فانتظار الجزاء بعد الموت لا يبطل قيم الأخلاق ، ولا يجعل الشجاع غير شجاع ، أو الكريم غير كريم فى ميزان الخلق المحمود .

قلنا فى كتابنا أبى الشهداء : «كذلك يقول من يقول إن الأريحية التى سمت إليها طبائع أنصار الحسين إنما هى أريحية الإيمان الذى يعتقد صاحبه أنه يموت فى نصرة الحسين فيذهب لساعته إلى جنات النعيم . . فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها باعث الإنسان إلى جميع أعماله ، حتى ما صدر منها عن عقيدة وإيمان ، وينسون أن المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التى يصاب من جرائها الفرد طوعا أو كرها فى خدمة نوعه ، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها . فلماذا لم يطلبوها كما طلبها أنصار الحسين؟ إنهم لم يطلبوها لأنهم منقادون لغواية أخرى ولأنهم لا يملكون عزيمة الإيمان ونخوة العقيدة ، ولا تلك القوة الخلقية التى يتغلبون بها على رهبة الموت ، ويقرعون بها وساوس التعلق بالعيش ، والخنوع للمتعة القريبة ، فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف الناس جميعاً بجنات النعيم على نحو واحد ، ومضى الناس على سنة واحدة فى الأريحية والفداء . ومرجع الفرق إذن فى آخر المطاف إلى فرق واضح بين طبائع الأريحيين وطبائع النفعيين» .

وهذا الفرق بين الطبائع هو الذى نرجع إليه فى رجل يمتاز بالشجاعة البالغة ، ورجل يمتاز بالسماحة البالغة ، ولا يمتازون بمزية واحدة ، وكلاهما يؤمن بالثواب والعقاب .

وهذا الفرق بين الطبائع هو الفرق بين من يطمح إلى المثل الأعلى ولا يقنع بما دونه وبين من يكفيه من الجزاء أنه يأمن العذاب .

وهذا الفرق بين الطبائع هو الفرق بين فرقتين من المسلمين تحارب كلتاهما فى صف وكلهم مصدقون بجزاء السماء واطلاع علام الغيوب بما يطوونه فى الخفاء .

فالعقيدة الدينية لا تبطل سماحة عثمان ولا تغض من قيمتها ، وتظل هذه السماحة سماحة مقومة فى معيار كل فضيلة ومعيار كل فاضل ، لا يغير منها أن العقيدة بعثتها فى مبعثها هذا ، أو حركتها بعد سكون ، أو خلقتها خلقاً من حيث لم تكن . فقد كان مع عثمان أناس من منبته لم يعتقدوا كما اعتقد ولم يزل بينهم وبين الاعتقاد حجاب من عوج العقول وعمى الأبصار وأثرة الجهالة ، وكل أولئك محسوب معدود فى معايير الأخلاق . .

ونعمم هذا القول فى تقويم الفضائل والمواهب فنفرق بين التقويم والتقدير وبين التعليل والتفسير ، فليست كل فضيلة عللناها أو فسرناها شيئا قد أبطلنا قيمته وقدره ، وليس قولنا إن هذه الروضة تنبت الرياحين والثمرات مبطلا ما بينها وبين الفلاة المجدبة من الفرق والاختلاف . وليس قولنا إن هذا الإنسان شجاع لأنه استمد مناقب الشجاعة من وراثته أو من تعليمه أو من اعتقاده ذاهبا بفضل الشجاعة مسويا بينه وبين الجبان أو بينه وبين الشجاع الذى هو دونه فى شجاعته وإقدامه .

فالأسباب تثبت الفضائل والمواهب ولا تنفيها ، وهى من أجل هذا جديرة بالإثبات وجديرة بالطلب وجديرة بالثناء وإن من تعرف أسباب حُسنه لحسن ، وإن من تعرف أسباب قبحه لقبيح ، فلن يصبح الحسن قبيحاً لأنه معروف السبب ، ولن يصبح القبيح حسناً لأنه معروف السبب وإن قل العجب مع عرفان السبب كما قيل ، فقد يذهب العجب ولا يذهب الإعجاب . .

والشاعر قد بلغ غاية الإعجاب بيحيى حفيد على بن أبى طالب حين قال :

كَـدأبِ عليٍّ فى المواطن كلِّهـا	أبى حسنٍ والعرق من حيث يخرج
وأين لـه مـن ذاك؟ لا أين! إنـه	إليـه بعـرقـيَـهْ الزكـيين مـرج

تفسير للشجاعة هو غاية التقدير ، وإبطال للعجب هو غاية الإعجاب ، وإنما يتجنى على الفضائل الإنسانية بتفسير أسبابها من يتمحل للنوع الإنسانى كأنه يتمحل لعدو لا يرضيه أن يوصف بخير إلا أن يتعلل لمعابته بعلة ويبطل العجب منه والإعجاب به سواء .

***

ثقافة عثمان

نعني فى تراجم عظماء الصدر الأول من الإسلام بالكلام على ثقافتهم ومصادر هذه الثقافة من معلومات زمنهم ، ونرى أنها من العناصر التى لا غنى عنها فى التعريف بمنازلهم وكفاياتهم ، لأن هذه الكفايات قسمة بين قوة النفس والخلق وبين قوة الفهم والتفكير ، ولا تخفى علاقة ثقافتهم بما يفهمون ويفكرون .

وبديه أن ثقافة الأقدمين غير ما نريده بكلمة الثقافة فى العصر الحديث ، ولكنه فرق يحسب للأقدمين ويشهد باجتهادهم ودرايتهم بالاستفادة من القليل المبعثر حيث لا يستفاد اليوم من الكثير المجموع الميسر لطالبيه ، ولو أننا جعلنا ودائع الورق مقياساً للثقافة لكانت أوراق تلميذ مبتدئ فى عصرنا أضخم من أوراق نوابغ المثقفين فى صدر الإسلام ، ولكنهم كانوا بهذا المحصول القليل يعملون ما يعجز نوابغنا وأبطالنا ، ويتكلمون فى المعضلات فإذا بالكلمة الوجيزة فصل الخطاب .

ونخال أن الاختلاف بيننا وبينهم فى ثقافتنا وثقافتهم فى فرق واحد يحصر جميع الفروق : وذاك أن الكلمة قد رخصت فى زمن المطبعة وإباحة الكلام أو ابتذاله لمن لا يحسنه فى قول ولا استماع .

كانت الكلمة تسمع وتحفظ ، وتنقل من سلف إلى خلف ، وتندمج فى تجربة كل سامع كأنها زيادة عضوية تتوالد ولا تموت .

كانت بضعة من حياة . .

كانت تصان كما تصان ذخائر الآباء والأجداد ، ولو أنها صينت هذه الصيانة لأول مرة فى عصر التنزيل لما استغرب أحد تقديسهم للكلمة التى يعلمون أنها مقدسة ويصونونها إيماناً بالفريضة الإلهية ، وما فى ذلك غرابة عند الأقدمين أو المحدثين ، ولكنهم فعلوا ذلك قبل عصور التنزيل ، وتعودوا الحرص على ذخيرتها الإنسانية قبل أن يتعودوا الحرص عليها وهى ذخيرة سماوية يدخرونها لحياة أبقى من الحياة الدنيا ، وهى حياة الخلود . .

إليك مثلا علمهم الذى كانوا يسمونه علم الأنساب : ما مبلغه من العلم بالقياس إلى العلم الذى يقابله فى زماننا وهو علم التاريخ؟

أين ذلك مما يستوعبه اليوم من النقد والتحليل والشرح والتفصيل والتفريع والتأصيل؟

لكن علم الأنساب هنالك وشائج أعراق وأحساب وعروق فى الأبدان والأنفس لا يدفنها التراب .

إذا عرف أحدهم نسبا فقد عرفه ليهتز بفخره أو يهتاج بعداوته أو يقرفه بفعال صاحبه ويشهدها فى ذريته وخلفائه .

وإذا عرف ذلك النسب فهو فلان هذا الذى أمامه ، يساجله المودة أو البغضاء ، ويذكر ما كان له ولآبائه من عزة ومضاء أو ذلة واستخذاء ، ويضيف إلى كل نسب رواية عن ملحمة ، أو طرفة من حكمة ، أو ملحمة من فكاهة ، ولا يجد بينها وبين أنباء نهاره فاصلا بين قديم وجديد أو بين مدثور مهجور وحاضر مسموع ومذكور .

وقل مثل ذلك فى أمثال العرب وشواهدها ومعارض الاستشهاد بها فى مواضعها . .

وقل مثل ذلك فى أشعارها ومدائحها وأهاجيها وبلاغتها ومحاسن ألفاظها ومغازيها . .

كل ممدوح كائن حى من مجد ومنعة وجود ومطاولة بالغلبة والعطاء ، وكل مادح كائن حى بما استجاشه من طمع وما استقبله من أمل وما خلفه وراءه من عطف وحنين ، وما أثار فى كلامه من تنافس وتناظر أو من سوابق بين عشائرهم تذكر وتستعاد وتعود معها محاسن آباء وأجداد ومساوئ أضغان وأحقاد .

فإذا سطرت تلك الأمثال والقصائد كلاما فى الورق فهى بضع صفحات مختزلات ، وإذا تمثلتها خوالج بين الصدور فهى حيوات تضاف إلى حياة .

لقد كانوا يعيشون عيشهم المحمل بتجاربه وعواقبه كلما تكلموا أو استمعوا إلى متكلم من رواتهم وبلغائهم وثقافتهم ، فلا جرم كانوا يفاخرون أمم العالم ، بأنهم يتكلمون .

***

وكان عثمان على علم بمعارف العرب فى الجاهلية ومنها الأنساب والأمثال وأخبار الأيام . وساح فى الأرض فرحل إلى الشام والحبشة وعاشر أقواما غير العرب فعرف من أطوارهم وأحوالهم ما ليس يعرفه كل عربى فى بلاده ، وجدد فى رحلاته تجديد الخبرة والعمل معارف البادية عن الأنواء والرياح ومطالع النجوم ومقارنتها فى منازل السماء ، وهى معارف القوافل والأدلاء من أبناء الصحراء العربية ، وأبناء كل صحراء .

وأسلم فكان من أفقه المسلمين فى أحكام الدين وأحفظهم للقرآن والسنة ، روى عن النبى عليه السلام قرابة مائة وخمسين حديثاً ، وقال محمد بن سيرين وهو يتكلم عن الصحابة : «كان أعلمهم بالمناسك عثمان ، وبعده ابن عمر» .

وكان أقرب الصحابة إلى مجرى الحوادث بين المسلمين والمشركين ، فكان من سفراء الإسلام فى غير موقف من مواقف الخلاف أو الوفاق ، تارة بين المسلمين وأعدائهم وتارة بينهم وبين الأسرى منهم فى أرض الأعداء .

وكان كاتبا يجيد الكتابة ، فاعتمد عليه النبى عليه السلام فى تدوين الوحى واعتمد عليه الصديق فى كتابه الوثائق الهامة ، ومنها الوثيقة التى عهد فيها بالأمر بعده لخليفته الفاروق .

وزودته معرفته بالأخبار والأنساب وسياحته فى البلاد بزاد حسن من مادة الحديث مع ذوى الكمال من الرجال . قال عبد الرحمن بن حاطب : «ما رأيت أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ كان إذا حدث أتم حديثا ولا أحسن من عثمان ابن عفان ، إلا أنه كان رجلا يهاب الحديث» . .

ولم يكن حديثه لغوا ولا ثرثرة يزجى بها الفراغ بين أهل الفراغ ، بل كان من تلك الأحاديث التى كان يتوق إليها النبى عليه السلام فى بعض أوقاته فيتمناها ، وتروى السيدة عائشة من ذلك أنها سمعت النبى ذات ليلة يقول : لو كان معنا من يحدثنا؟ قالت : يا رسول الله أفأبعث إلى أبى بكر «فسكت . ثم قالت : أفأبعث إلى عمر؟ فسكت . ثم دعا وصيفا بين يديه فساره فذهب فإذا عثمان يستأذن ، فأذن له فدخل فناجاه عليه السلام طويلا . .

وينقل عن الرواة كثيرا من شواهد الأمثال والأشعار ، وكأنه كان ينظم الشعر إن صح ما قيل إنهم وجدوا فى خزانته وصية مكتوبا على ظهرها :

غنا النفس يُغنى النفسَ حتى يجلَّها	وإن غضَّهـا حتى يضرَّ بهـا الفقْر
ومـا عـسرةٌ فـاصْبـر لهـا إن لقيْتَهـا	بكائنة إلا سـيـتْـبـعـهـا يسْـرُ
ومن لَم يُقاسِ الدهْرَ لم يعرف الأسى	وفى غـيـر الأيام مـا وعـد الدهرْ

إلا أنه كتب فى خلافته رسائل من النمط الذى لا يرتضى الظن نسبته إلى كاتبه مروان . .

ومن هذه الرسائل كتاب إلى عماله يقول فيه :

« . . استعينوا على الناس وكل ما ينوبهم بالصبر والصلاة ، وأمر الله أقيموه ولا تداهنوا فيه ، وإياكم والعجلة فيما سوى ذلك ، وارضوا من الشر بأيسره ، فرن قليل الشر كثير ، واعلموا أن الذى ألف بين القلوب هو الذى يفرقها ويباعد بعضها عن بعض سيروا سيرة قوم يريدون الله لئلا تكون لهم على الله حجة» .

ومنها كتاب إلى العمال يقول فيه : «إن الله ألف بين قلوب المسلمين على طاعته ، وقال سبحانه : ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ . . وهو مفرقها على معصيته ، ولا تعجلوا على أحد بحد قبل استيجابه فإن الله تعالى قال : (لست عليهم بمسيطر إلا من تولى وكفر) ومن كفر داويناه بدوائه ، ومن تولى عن الجماعة أنصفناه وأعطيناه حتى يقطع حجته وعذره إن شاء الله» .

ومن كتبه إلى العمال :

«أما بعد ، فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة . فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء . إلا وإن عدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين فتعطوهم الذى لهم وتأخذوا بما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة[1] فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم . ثم العدو الذى تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء» .

ومن كتبه إلى الجباة :

«أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق . خذوا الحق وأعطوا الحق ، والأمانة الأمانة ، قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد ، فإن الله خصمٌ لمن ظلمهم . .»

وكتب إلى أمراء الأجناد : «أما بعد فإنكم حماة المسلمين وذادتهم ، وقد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا ، بل كان على ملأ منا . . لا يبلغنى عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم فانظروا كيف تكونون ، فإنى أنظر فيما ألزمنى الله النظر فيه والقيام عليه» . .

---

(١) أى الذميين .

وبعض هذه الكتب يبدؤه ويختمه بذكر آيات من القرآن تتوالى فى بيان ما يدعوهم إليه وينهاهم عنه ، وليست هى مما يكتبه مروان لأنه لم يكن يحفظ القرآن حفظ عثمان ، وليس ما تقدم من الوصايا الذى يكتبه مروان غير مملى عليه . لأنها هى الوصايا التى هى أحرى بحياء عثمان وألفته ووفائه ورحمته لليتيم وإيثاره الموادعة وكراهته اللجاجة فى القصاص . لهذا نقول إنها من أسلوبه الذى يوائمه رضى الله عنه ، وأسلوبه ثمة هو ترجمان نفسه ، فإن الرجل يكتب لغيره ليقنعهم بما يحس أنه مقنعه لو كتب إليه ، وهذه كتابة عثمان لا كلفة فيها ولا محاولة ولا إطناب ، إلا الدعوة القوية فى استقامة وسهولة وبساطة لا تقدر فى الناس أنهم يخالفون ما وضح لهم واستقام بين أعينهم من الأمور ، وكذلك كان عثمان يعقل ما يطيعه وما يطاع ، وكذلك استجاب لدعوة أبى بكر حين دعاه إلى الإسلام ، فما هو إلا أن اتجه ذهنه مستقيما إلى حقيقة الأصنام وحقيقة الإسلام حتى قال لصاحبه : نعم . . هو ذاك . .

***

أما الخطابة فقد كانت على هذا النهج من الكتابة السهلة القوية ، وربما ارتج عليه فلا يبتئس لذلك ولا يزيد على أن يقول ما معناه : سيأتى القول حين الحاجة إلى القول . .

ومن خطبه فى أوائل الفتنة : «إن الناس يبلغنى عنهم هنات وهنات ، وإنى والله لا أكون أول من فتح بابها وأدار رحاها . ألا وإنى زام نفسى بزمام وملجمها بلجام . . ومناولكم طرف الحبل ، فمن اتبعنى حملته على الأمر الذى يعرف ، ومن لم يتبعنى ففى الله خلف منه وعزاء عنه . ألا وإن لكل نفس يوم القيامة سائقا وشاهدا : سائق يسوقها على أمر الله وشاهد يشهد عليها بعملها فمن كان يريد الله فليبشر ، ومن كان إنما يريد الدنيا فقد خسر» . .

ومن خطبه بعد تفاقم الفتنة خطبة على الرواية لم تكن مرتجلة قال فيها :

« . . . آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة ، عيابون طعانون ، يرونكم ما تحبون ، ويسترون عنكم ما تكرهون ، ويقولون لكم وتقولون أمثال النعام يتبعون أول ناعق ، أحب مواردهم إليهم البعيد ، لا يشربون إلا نغصا ولا يردون إلا عكرا ، لا يقوم لهم رائد . . وقد أعيتهم الأمور . .

«ألا فقد والله عبتم على ما أقررتم لابن الخطاب بمثله ، ولكنه وطئكم برجله ، وضربكم بيده ، وقمعكم بلسانه ، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم ، ولنت لكم وأوطأتكم كنفى وكففت عنكم يدى ولسانى فاجترأتم علىّ أما والله لأنا أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا وأحرى إن قلت : هلم أتى إلى . ولقد أعددت لكم أقرانا وأفضلت عليكم فضولا وكشرت لكم عن نابى وأخرجتم منى خلقا لم أكن أحسنه ، ومنطقاً لم أنطق به ، فكفوا عنى ألسنتكم وعيبكم وطعنكم على ولاتكم ، فإنى كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم رضيتم منى بدون منطقى هذا . ألا فما تفقدون من حقكم؟ والله ما قصرت عن بلوغ ما بلغ من كان قبلى ، ولم تكونوا تختلفون عليه . .» .

وهذه الخطبة هى التى قام مروان بعدها يهم بالكلام ويتكلم متوعدا فأسكته عثمان ، ونرى أنها قيلت على الروية لأنه خرج من داره وهو يعلم باجتماع الوفود وحفزها ولم يفاجأ منها بأمر لم يكن يعلمه وهو ينوى الخطابة فيها . .

وهذه النماذج من كتبه وخطبه لا تورد فى هذا المقام من ناحية البلاغة والبيان مستقلة عن مواضعها ودواعيها ، ولكنها تورد قبل كل شىء لأنها – مع ما تبديه من بيانه – تبدى لنا أسلوب الخليفة الثالث فى علاقته برعاياه من خلال أسلوب الكتابة والخطابة . . فقد كانت أوائل كتبه أشبه الكلام بما نسميه اليوم «الأسلوب الرسمى» أو أسلوب التشريع والوثائق القانونية : تبليغ وتقرير بغير تنميق ولا محاولة تأثير ، وهو كذلك أسلوب الخلافة التى تعلم أن التفاهم بينها وبين من تخاطبهم مفروغ منه متفق عليه مستغن عن الإقناع وعن المسحة الشخصية التى يصطبغ بها الكلام إذا وقع الاختلاف فى النظر بين السامع والمتكلم ، ثم يستطرد الموقف بالخليفة إلى ما رأيناه فى خطابه الأخير ، وأول ما يبدو منه أن الراعى والرعية لا يثوبون إلى قسطاس واحد ، وتلك بوادر الملك تظهر فى مضامين القول كما ظهرت على ما نراه فى الأعمال والنيات . .

الفصل الثالث
من إسلامه إلى خلافته

١ - شنونه:

مضى من إسلام عثمان إلى مبايعته بالخلافة نيف وثلاثون سنة ، شهد فيها من الغير في تاريخ الجزيرة العربية وفى تاريخ العالم من حولها مالم يعهد العالم قط قبل البعثة المحمدية ، وشهد فيها عهد الدعوة النبوية وعهد الخلافة فى أوجها على أيام الصديق ثم على أيام الفاروق .

وجمعت المصاهرة بين حياته الخاصة وحياة النبى عليه السلام فى بيته مع اتصاله به فى الدعوة الكبرى من سنتها الأولى ، فلم يفته شيء من أخبار النبوة الخاصة والعامة فى حياة النبى ، ولم يفته شيء بعدها من أخبار الخلافة فى حياة الشيخين ، ولم يفته بعبارة أخرى شيء مما نسميه اليوم بأعمال التأسيس فى الدولة الإسلامية . .

تزوج من السيدة رقية بنت النبى عليه السلام ، وهاجر بها إلى الحبشة فكان أول المهاجرين إليها ، ثم هاجر بها إلى المدينة فمرضت هناك بالحصبة وأذن له النبي عليه السلام أن يتخلف عن وقعة بدر للعناية بها ، فماتت يوم ورد البشير إلى المدينة بنصر المسلمين وهزيمة قريش فى تلك الوقعة الحاسمة ، وقيل إن عثمان كان قد أصيب بالجدرى قبل الخروج إلى بدر ، فحال مرضه ومرض زوجته دون الخروج إليها مع جلّة الصحابة . .

وكانت غبطة عثمان بمصاهرة النبى عليه السلام عظيمة ، وحزنه لانقطاع هذه الصلة أعظم ، فلم ير بعد ذلك إلا محزونا مهموماً لفقد زوجته وانقطاع صلته بنبيه وأكرم الناس عليه ، ورآه على تلك الحال فسأله : «مالى أراك مهموما؟» قال فيما رواه سعيد بن المسيب : «وهل دخل على أحد ما دخل عليّ يا رسول الله! ماتت ابنة رسول الله التى كانت عندى وانقطع ظهرى وانقطع الصهر بينى وبينك» فطيب النبى خاطره وزوجه أختها أم كلثوم وبقيت معه إلى أن توفيت فى السنة التاسعة للهجرة بعد بنائه بها بست سنوات .

وأشهر الروايات على أنه سمى بذى النورين لأنه تزوج من رقية وأم كلثوم بنتى النبى عليه السلام ، «ولم يعلم أحد تزوج بنتى نبى غيره» . .

ويقال انه سمى بذلك لإن النبى عليه السلام قال : فيه نور أهل السماء ومصباح أهل الأرض ، ويقال انه كان يختم القرآن كل ليلة فى صلاته «فالقرآن نور وقيام الليل نور» .

ومما خرجه الحافظ السلفى فى سياق هذه الكنية أن إسماعيل بن علين أتى يونس بن خباب ليسمع منه ، فسأله يونس «من أين أنت؟» فقال : «من أهل البصرة» قال يونس : «أنت من أهل المدينة الذين يحبون عثمان بن عفان وقد قتل ابنتى رسول الله ﷺ . . .» فقال يونس ما فحواه : «أتراه قتل واحدة فزوجه الثانية من أجل ذلك!» .

وجواب إسماعيل مفحم ، وقصته مع يونس بن خباب عبرة من عبر الدعوة «السياسية» إذا لجت بالنفوس وغلبت على العقول ، فما يسمى عثمان من أجله بذى النورين يجرى على لسان صاحب الهوى فى النقد والمعابة فينعاه عليه وينعاه على البلد الذى يحبه ، ويحسبه قتلا لبنتين من بنات النبى ولا يدور بخلده جواب إسماعيل أن من قتل واحدة لا يعطى غيرها ليقتلها ، ولا يرد على باله مالا يغيب عن مثله من حديث ابن عباس حيث يروى عن النبى أنه قال لعثمان مواسياً بعد موت رقية : «والذى نفسى بيده لو أن عندى مائة بنت تموت واحدة بعد واحدة زوجتك أخرى حتى لا يبقى من المائة شيء . .»

وحقيق بهذه القصة أن نحضرها أخلادنا ونحن مقبلون على العلل والتعلات فى الدعوة لعثمان والدعوة عليه ، فإننا لواردون على علل كثيرة وتعلات أكثر منها ، تسبقها الرغبة فى خلق المحاسن أو المآخذ فلا تعيا مرة بخلق ما تريد . .

ومنذ اليوم الذى أسلم فيه عثمان لزم النبى حيث كان ولم يفارقه إلا للهجرة بإذنه ، أو فى مهمة من المهام التى يندب لها ولا يغنى أحد فيها غناءه . شأنه فى هذه الملازمة شأن الخلفاء الراشدين جميعاً ، كأنما هى خاصة من خواصهم رشحهم لها ما رشحهم بعد ذلك للخلافة متعاقبين بغير حاجة إلى مفاضلة وترجيح .

فمن الصحابة من كان يبرح المدينة أو مكة فى عمل من أعماله ، ومن كان يحضر الغزوات ويغيب عما عداها فى مصالحه ومصالح أهله ، ما عدا أبا بكر وعمر

وعثمان وعليا ، فقد أصبح عملهم بعد إسلامهم مقترنا بعمل النبى فى مقامه وسفره ، وقد يقترن به فيما عم أو خص من أمره صلوات الله عليه ، وتلك وشيجة من وشائج الواقع غير مدبرة ولا مقدرة ، تجمع بين النبوة والخلافة كما ينبغى أن تجتمعا بحكم القرابة اللدنية بين المهتمين المتلازمين . .

وترك عثمان تجارته الواسعة لمن يتولاها عنه من وكلائه وذوى قرباه ، وجعل بيته بيتاً لمال المسلمين قبل أن يكون للدولة الإسلامية بيت مال ، فلم يتطلب عمل الرسالة مددا من زاد السلم أو الحرب إلا نهض به عثمان وحده أو كان أول ناهض به مع القادرين على بذل المال فى هذا السبيل . .

شكا المهاجرون تغير الماء بالمدينة ولم يجدوا فيها غير بئر واحدة يستسيغون ماءها ، وكانت عند يهودى يغالى بثمنها ، فاشترى منه نصفها وغلبه دهاءً ، لأنه قسم سقياها يوما له ويوما لصاحبها ، وأباح السقيا منها بغير ثمن فى يومه ، فكان طلاب الماء يأخذون منه كفايتهم فى ذلك اليوم . . ونظر اليهودى فرأى أنه لا ينتفع من نصفه الباقى له بكثير أو قليل فلما باعه بالقليل بعد المغالاة فيه وهبها عثمان لمن يستقى منها فى جميع الأيام . .

ولما ندب النبى المسلمين لغزوة تبوك لم يكن عندهم من المال ما يقوم بنفقاتها ، لبعد شقتها واشتداد القيظ فى وقت الخروج إليها ، فتكفل عثمان وحده بتلك نفقاتها ، وتبرع للمجاهدين بالمطايا والأطعمة ، وجاء بألف دينار فى كمه فنثرها فى حجر الرسول ، وكرر ذلك غير مرة على ما جاء فى جمهرة الأخبار . .

واشترى أرضا ليزيدها فى بناء المسجد بذل فيها عشرين ألف درهم أو خمسة وعشرين ألفا ، ولم يقصر عن معونة يستطيعها فى عسرة أو مجاعة ، مدعوا إلى ذلك أو ملبيا من نفسه داعية النجدة والسماحة ، فلم يضارعه فى سخائه أحد من أقرانه ، وكان بحق أسخى الأغنياء وأغنى الأسخياء . .

وعهد إليه النبى فى السفارات التى يخشى خطرها ، فلما كانت حملة الحديبية التى تأهب فيها النبى لدخول مكة دعا بعمر ليبعثه إلى رؤساء عشائرها ، فقال عمر : «إن قريشاً تعرف عدواتى إياها وغلظتى عليها وليس بين القوم أحد من بنى عدى ينتصر لى ، فلو بعثت يا رسول الله عثمان إليهم فهو بينهم أعز منى» وقد بعثه النبى فلم يسلم من سفاهة السفهاء ولم يمنعهم أن يبطشوا به لولا أن تصدى لهم

ابن عمه أبان بن سعيد بن العاصى ، وشاع يومئذ فى معسكر المسلمين أن المشركين قتلوه ، وكانوا قد احتبسوه ثلاثة أيام يتشاورون فى أمره ، فلما دعا النبى جنده إلى بيعة الرضوان أو بيعة الشجرة ، وضع يده اليمنى على يده اليسرى وهو يقول : هذه بيعة عثمان . . «اللهم هذه عن عثمان فى حاجتك وحاجة رسولك» . .

وسيأتى من أمر الدعوة على عثمان أنهم كانوا يحسبون عليه أنه لم يشهد بدرا ولم يشهد يوم البيعة ، ولا لوم عليه فى المرتين ولاسيما التخلف عن بيعة الشجرة ، إذ كان قد تخلف فيما هو أخطر وأعسر من حضور المبايعة كما حضرها سائر الصحابة ، وهذه وما تقدمها من حديث يونس بن خباب بعض أفانين التهم التى تخلقها الفتنة ، ويعلم بطلانها القائل قبل المستمع إليها . .

***

ومن المهام التى اختصه النبى بها أنه كان يكتب له الوحى عند نزوله ، وكان عليه السلام يناديه متحببا ويقول له وهو يملى عليه : «اكتب يا عثيم» واستخلفه على المدينة فى غزوته إلى ذات الرقاع ، وأرسله إلى اليمن مستطلعا حين كانت إمارتها إلى على ، وكاد أن يفرده بالعمل فيما نسميه اليوم أمانة السر أو الكتابة الخاصة ، وهى أمانة يضطلع بها من يوثق بصدقه وكياسته ولطف أدائه لما يؤتمن عليه من رسالة أو سفارة . .

لا جرم يروى عنه أبو عبد الله الجبيرى فى رواية راجحة أنه كان موضع سر النبى فى مرضه عليه السلام ، وفى هذه الرواية ينقل عن السيدة حفصة أنها حادثت السيدة عائشة تذكرها بما كان من هذه المسارة فقالت : «إنى كنت أنا وأنت عند رسول الله ﷺ فأغمى عليه فقلت لك : أترينه قد قبض؟ فقلت : لا أدرى ، ثم أفاق فقال : افتحوا له الباب ، فقلت لك : أبوك أو أبى؟ فقلت : لا أدرى ففتحنا فإذا عثمان فلما رآه النبى ﷺ قال : ادنه ، فأكب عليه فساره بشئ لا أدرى أنا وأنت ما هو ثم رفع رأسه فقال : أفهمت ما قلت لك؟ قال نعم ، قال : ادنه . . فأكب عليه أخرى مثلها فساره بشىء ما ندرى ما هو ، ثم رفع رأسه فقال : ما قلت لك؟ قال نعم سمعته أذناى ووعاه قلبى ثم أمره فانصرف . .

كان بين الصحابة منزلة من منازل الفخر يعتدون بها ويتعارفون عليها وهى منزلة الرضى من رسول الله إلى يوم وفاته ، وكان من الكلمات الجارية على الألسنة فى معرض الثناء أن يقال عن الرجل أنه توفى رسول الله وهو عنه راض .

فهذه المنزلة كانت من مفاخر عثمان التى يذكرها ويذكرها له من يحمده ، وكان فى الطليعة ممن تحسب لهم هذه المفخرة بين الصحابة ، وإنما كان شانئوه يتحدثون بتخلفه عن وقعة بدر وعن بيعة الرضوان لينزلوا به شيئاً من منزلته تلك التى ليس عليها خلاف .

وصارت الخلافة إلى الصديق وهو الذى أسلم عثمان على يديه وطالت الصحبة بينهما من قبل الإسلام وألفت بينهما مشابه كثيرة فى الطباع والأخلاق ، وكان أبو بكر يعتقد فى عثمان الحزم كما قال له يوم فاتحه فى أمر إسلامه ، وليست هى من كلمات المجاملة فى مقام الترغيب والارتفاع فما كان أبو بكر بالرجل الذى يرسل الكلمات جزافا ولا بالمتكلم الذى يعييه أن يجامل أحدا بالصدق الذى يرضيه .

ولم يكن مستغربا بعد طول الصحبة أن يكون عثمان أقرب المقربين إلى الخليفة الجديد فى أعمال سياسته وأواصر مودته ، ولكننا هنا أمام عهد نادر من عهود الإنسانية تتقدم فيه النظرة إلى الدعوة القائمة على كل نظرة إلى ما عداها ، وقد يحب الإنسان من يحب لأنه أقرب إلى اعتقاده فى نصرة الدعوة والأمانة لها والقدرة على خدمتها ، وإن هذه الظاهرة العميقة الأغوار لمن أقوى ظواهر العهد وأحقها من المؤرخ بالانتباه إليها ، وقد سبقت الإشارة إلى فعلها المدنى فى الجمع بين النبوة والخلافة وتخصيص الخلفاء الراشدين على غير تدبير ولا تقديم بملازمة النبى فى مقامه وسفره وغيابهم حين يغيبون بإذنه وفى رسالة من رسائل الدعوة النبوية ، ثم ها هى تتكرر فى التقريب بين الخليفة الأول وبين أوفق الصحاب لمعونته وملازمته والاطلاع على مقاصده ونياته ، فلم يكن بين أبى بكر وعمر من الصحبة قبل الإسلام ولا من المشابهة فى الخلق بعض ما كان بين أبى بكر وعثمان ، ولكن أبا بكر وعمر كانا أوفق اثنين بين الصحابة للعمل معا فى مهام الخلافة الأولى ، فتلازما وتشاورا وتقارب بينهما فى الدعوة ما تباعد فى الخلق والخليقة ، حتى كان من يريد الوقيعة يسأل أبا بكر متجاهلا : والله ما ندرى أأنت الخليفة أم عمر؟ فيقول رضى الله عنه : هو لو كان شاء . .

ويحق لنا أن نقول إن الأمر لم يكن باختيار أبى بكر ولا باختيار عمر ، ولكنه كان باختيار المصلحة العليا التى غلبت على كل مصلحة فى ذلك العهد النادر ، وإنها لمن وحى الله . .

فى أيام أبى بكر لم يكن أحد بعد عمر أقرب إليه من عثمان ، وكتب أبو بكر

عهده الأخير وهو على سرير الموت وعثمان إلى جواره يملى عليه ، فلما أفاق سأله : من كتبت؟

قال : عمر . . كتبها وهو يعلم أنه لا يعدو بها نية الخليفة المحتضر فإن أفاق أتم عهده كما أراد ، وإن ذهب فى تلك الغشية بطلت اللجاجة فيما أراد ، وانسد باب الفتنة والخلاف . .

قال أبو بكر وهو على سرير الموت مستريح إلى وفاء صاحبه ، مطمئن إلى أمانة كاتبه : «بارك الله فيك : بأبى أنت وأمى ، لو كتبت نفسك كنت لها أهلا» . .

هذا هو أسلوب الصديق فيما يرتضيه لمجاملته وصدقه : كلمة حق توافق السامع ولا تخالف الحقيقة فى ضمير القائل ، ومما لاشك فيه أن أبا بكر كان يرى فى عثمان أنه أهل للخلافة ، وإن رأى عمر أحق بها منه . .

***

ثم صارت الخلافة إلى عمر ولم يكن عنده قريب أو بعيد غير من يقربه عمل أو يبعده عمل ، ولم يكن للناس عنده أقدار غير أقدارهم عند الله وعند رسول الله . وكان يستمع إلى كل ويعتمد على كل ، ويستبقى كبار الصحابة جميعاً عنده ليستعين برأيهم ويجنبهم غواية الدنيا إذا انطلقوا إليها ، أو كما قال إنه كان يخشى على الدنيا منهم ، فبقى منهم من بقى على رضى وموافقة ، وبقى الكثيرون منهم على تبرم وملل ، فلم يرسل أحدا منهم فى البلاد إلا من أرسله فى ولاية أو جهاد ، ولم يكن يطيل الولاية لأحد منهم وإن أحسن وأفضل ، مخافة على الناس أن يفتنوا بإحسانه وأفضاله ، إن لم يخف عليه أن يفتنه الناس .

وكان عثمان ممن بقى معه ولازمه غير مكره ولا راغب فى الرحلة كما رغب فيها الذين لم يرتحلوا ارتحاله قبل الإسلام ، ولم يشتغلوا بالدين اشتغاله بعد الإسلام ، فركن إليه عمر فى طلب المشورة وعمل بمشورته فى إحصاء الناس والأعطية ، وفى بدء السنة بشهر المحرم ، وعمل بها فى خطته الكبرى وهى خطة العزل بين الإمامة والقيادة فى ميادين القتال ، فإن إصابة الإمام قد تطمع العدو وقد تيئس الصديق ، وليست كذلك إصابة القائد الذى من ورائه إمام يوليه ويولى أنداده وأمثاله من بعده ، وهى نصيحة من عثمان لعمر ما أدلها على سرائر المؤمنين فى ذلك العهد الأمين : ينصح الناصح ولا ينبغى بنصيحته غير وجه الله ، ويتقبلها السامع وهو لا يبتغى بقبولها غير وجه الله .

شىء واحد من أشياء كثيرة يكشف لنا عن أصالة المشكلات والنقائص فى عهد عثمان .

فهنا هنا فترة من التربية السياسية مرت به ومر بها ولم تهيأ لخليفة قبله ولا بعده ، فهى أطول من فترة التربية السياسية التى تهيأت لأبى بكر مع النبى وأطول من الفترة التى تهيأت لعمر مع النبى والخليفة الأول ، ثم هى أطول من الفترات التى تهيأت للخليفة الرابع على الذى جاء بعده ، لأن عليا رضى الله عنه أسلم وهو صبى ومضت عليه سنوات قبل مشاركته فى أعمال الرأى أو أعمال الفعل والإنجاز ، وقد كان إسلام عثمان وهو فى نحو الثلاثين ، مشهود له بالحزم والبصر ، ومتأهب من اللحظة الأولى للمشاركة فى كل خطة يتعاون عليها أقرب المقربين من صاحب الدعوة ، وبينه وبين صاحب الدعوة عليه السلام صهر ومودة وقرابة ليست بالبعيدة .

وفى هذه الفترة التى تمرس فيها بشئون الدعوة وشئون الخلافة عرضت كل مشكلة وارتسمت كل خطة فى معاملة الصحابة وسائر المسلمين ، وارتسمت كذلك كل خطة فى معاملة المشركين والمنافقين من مسالمين أو محاربين ومن أناس على الموازبة بين السلم والقتال ، واتضحت على هذا النحو حدود الإمام وحدود أحوال الرعية ومواضع الترخص والتشدد فى جميع هذه الحدود على اختلاف أحوال اليسر والعسر أو أحوال التبسط والحرج ، وكان خليقاً به وهو مطلع على كل قدوة وكل سابقة أن يكون اطلاعه هذا عُدة جامعة يستعد بها لولاية الخلافة وتدبير الولايات من قبلها ، وصراطاً يستقيم عليه فلا يعوزه الرأى الواضح ولا التصرف العاجل فى أمر من الأمور . .

وهذه هى المشكلة الكبرى . .

بل هذه هى مشكلة المشاكل فى عهد عثمان من قبل ابتدائه إلى ما بعد نهايته . .

المشكلة الكبرى كما سوف تتراءى لنا أنه لم يعمل فى خلافته عملا قط على غير سابقة تشبهه فى كل شىء إلا فى ظروفه وملابساته ، فقد تغيرت كل الظروف والملابسات وهى هى بيت القصيد فى كل استعداد لها بالقدوة السابقة . .

لقد كانت له سابقة فى كل شأن من شئونه حتى فى شئون زواجه ومصاهرته ،

وحتى فى شئون تمييزه وتأليفه لذويه ولأعدائه ، ولكن مع هذا الفارق الواحد الذى هو فى الحقيقة جامع لكل فارق خطر على البال ، وهو فارق الظروف والملابسات .

كانت تربيته السياسية عدة له وأى عدة ، كانت مع هذا هى مشكلة المشكلات بين الاستعداد بها والتصرف فيها وفاقاً لما اختلف من ظروفها وملابساتها . .

عدة ولا عدة . .

وهذه هى إحدى النقائص الكبرى التى تأصلت فى عهد هذا الخليفة الشهيد . .

ونقيضة أخرى من نقائص عهده تعود إلى مزيته العظمى فى إسلامه قبل عامة قومه . .

فهذه المزية العظمى ، ما معناها إذا نحن عبرنا عنها بعبارة أخرى لا تخرج عنها فى لبابها وقشورها؟

معناها القريب البسيط أن قومه تأخروا فى الإسلام ، وأنه كان مسلما من صفوة المسلمين ، إذ كان قومه عامة على لدد الكفر وإسرار العداوة بينهم وبين النبى وصحبه الأبرار ، وكان منهم من يعوذون به وهم كافرون أو مرتدون فيبدو ذلك نكيرا منفردا بين جلة الصحابة ، لأنه كان وحده منفردا بالمزية التى لم يتفردوا بها مثله ، وهى سبقه إلى الإسلام بين أسرة مصرة على المكابرة والعداء .

ولقد كان العربى يلوذ بالعربى وهما فى المعسكرين المتناجزين ، وكان عثمان مسلما يوم أوفده النبى إلى مكة وتلقاه أهلها بالأذى فتصدى لنصرته بعض أبناء عمومته المشركين ، ومضى ذلك فى حينه ولم يلتفت إليه ملتفت فى ذلك الحين ، لأنه لم يكن بدعا من عادات القوم قبل الإسلام ولا بعده ، وكان مشركو مكة يهابون المساس بصاحب الدعوة نفسه لعلمهم أن عشيرته تغضب له إذا جد الجد وأصابه المكروه فى سبيل الدين . .

فلما انتهى أمر الشرك ، وانتهى عرفه وعاداته ، وبقيت مفاخر الإسلام وسوابقه أصبحت المزية العظمى نقيضة من جانبها الآخر . . وبغير هذا الجانب الآخر لم تكن مزية على الإطلاق . .

يحضرنا فى هذا الصدد مثل يستوحيه الذهن قسرا فى موقعه من هذه السيرة ، وهو مثل الرؤيا التى فسرها المتجمون للملك تفسيراً قضى عليهم بالعقاب ، ثم فسرها له غيرهم تفسيراً أغدق عليهم النعمة والثواب ، ولا فرق بين التفسيرين فى المدلول . .

قال له المنجمون أولا : أن الرؤيا مشئومة لأنها تريهم أعزاءه يهلكون واحدا بعد واحد ثم لا يلبث الملك أن يهلك على آثارهم . .

ثم قال له المنجمون آخرا : إنها لرؤيا سعيدة تبشره بالعمر الطويل ، وأنه لأطول عمرا من قومه أجمعين . .

والتفسيران واحد في المدلول ، ولكن الأول يسخط ويسوء ، والثاني يرضى ويسر ، ولا فارق بينهما فى غير التعبير . .

وعثمان رضى الله عليه كان أسبق قومه إلى الإسلام فهذه مزيته العظمى . .

وكان كل أهله على الشرك ما عداه ، وهنا تتغير الصفحة فى النظر بعد ذهاب الشرك وأهله ، وما بدا فى الصفحة الأولى إلا الذى بدا فى الصفحة التالية : قريب من قريب . .

***

ليس من المألوف فى أيام عثمان أن يكون الزواج مسألة من مسائل المجتمع ، فإنما كانت شئون الزواج تجرى على وتيرة واحدة بحكم العادة كأنها من شئون الزوج والزوجة التى لا تعنى أحدا غيرهما ، ولكن زواج عثمان لم يجر على هذه الوتيرة سواء قبل الخلافة أو بعدها . . فكان زواجه على التعاقب من بنتين للنبى عليه السلام تاريخاً فى علاقات الزواج يكفى من ندرته أنه عرف فى كنيته على قول من أشهر الأقوال .

ولم يختلف بعد وفاة السيدة أم كلثوم عن سنة أمثاله في الزواج من عقيلات البيوت على الأغلب إلى أن توفى عن زوجاته الثلاث رملة وفاختة ونائلة ، إلا أن زواجه من نائلة بنت الفرافصة كان من قبيل الزواج الذى يقال فيه أنه مسألة من مسائل المجتمع فى حينه ، فقد كان زواج الصحابة من غير المسلمات خارج الحجاز أحد الطوارئ التى جدت فى المجتمع الإسلامى بعد فتوح العراق والشام ومصر وكان لها أثرها البعيد فى تطور البيت العربى واختلاف أنماط المعيشة بين ذوى البيوتات من جلة الصحابة ، وبعضها مما دخل على المعيشة العربية بعادات للأمم الغريبة لم يتعودها العرب قبل مخالطتهم تلك الأمم مخالطة الصهر والمعاشرة البيتية . .

وتتعدد الروايات فى الباعث إلى خطبة عثمان لنائلة بنت الفرافصة كما هو

الغالب فى أخبار العصر كله ، وأشهرها أنه سمع بزواج سعيد بن العاص والى الكوفة من أختها هند ، وتناقل ذوو قرباه الأحاديث عن كياستها وجمالها وحسن قيامها على أمور بيتها ، فكتب إلى سعيد يخطب أختها ولا يعرفها ، وكان ضب بن الفرافصة قد أسلم ، فأمره أبوه أن يزوجه أختها نائلة ، وكانت أديبة ذكية تنظم الشعر وتحسن القول ، ولها فى زواجها من عثمان أبيات مما تغنى به ابن عائشة فى بعض ألحانه ، ومنها قولها تخاطب أخاها :

ألست ترى يا ضبُّ بالله أننى ... مُصاحبةٌ نحو المدينة أركُبا

إذا قطعوا حزناً[1] تَخُبُّ ركابهم ... كما حرَّكت ريح يراعا مُثقبًا

لقد كانت فى فتيان حِصْن بن ضَمْضَمْ ... لك الويل ما يغنى الخباء المطنبا[2]

ثم قولها تخاطب نفسها :

قضى الله حقا أن تموتى غريبةً ... بيثربَ لا تلْقين أما ولا أبا

وغادرت قومها فى بادية الشام وحواضرها على كره منه إلى مسكنها الغريب ، وسألها حين رآها : «لعلك تكرهين ما ترين من شيبى؟» قالت : «والله يا أمير المؤمنين إنى من نسوة أحب أزواجهن إليهن الكهول» قال عثمان : «أنا قد جزت الكهول ، وأنا شيخ ، ولن تجدى عندنا إلا خيرا» . .

وعلى هذه النفرة بعد هذه الغربة توثقت المحبة بين الزوجين حتى كرهت الزوجة الفتية بعد مقتل عثمان أن تتزوج من أحد بعده كائنا ما كان قدره ونسبه ، وتكاثر خطابها فأحبت أن تصرفهم عنها وتصرف نفسها عنهم ، فعمدت إلى حجر فهتمت به ثناياها ، وردت معاوية بن أبى سفيان حين خطبها قائلة لرسوله : «ماذا يرجوه من امرأة جلداء؟» . .

ونائلة هى التى كتبت إلى معاوية تصف مقتل زوجها ، وقالت من خطابها الذى تواترت نسبته إليها : «من نائلة بنت الفرافصة إلى معاوية بن أبى سفيان . أما بعد . . فإنى أدعوكم إلى الله الذى أنعم عليكم وعلمكم الإسلام وهداكم من

(١) الحزن : خلاف السهل والجمع حزون .
(٢) أى المشدود بالأوتاد والحبال .

الضلالة وأنقذكم من الكفر ونصركم على العدو وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ، وأنشدكم الله وأذكركم حقه وحق خليفته أن تنصروه بعزم الله عليكم ، فإنه قال : ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ﴾ وأن أمير المؤمنين بغى عليه ، ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولاية لحق على كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره ، فكيف وقد علمتم قدمه في الإسلام وحسن بلائه وأنه أجاب داعي الله وصدق كتابه واتبع رسوله ، والله أعلم به إذ انتخبه فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة» . .

ثم استطردت تقص خبر مقتله ، وتتهم المقصرين عن نجدته . . فما كان صوابها بأدل على الوله والحزن من خطئها فيما اتهمت ، ومن تخبطها فيما زعمت ، فإن خطبا أهون من خطبها الذي شهدته بعيني رأسها ليذهل الحزين عن سداد رأيه كما قال حكيم المعرة فيما دون ذلك :

ربما أذهل الحزين جوى الحزن	إلى غير لائق بالسداد
مثلما فاتت الصلاة سليمان	فأنحى على رقاب الجياد

وقد كان لها عند عثمان مثل هذا الحب وهذه الحظوة ، بل كان له من الثقة بنصحها مالم يكن له في مروان بن الحكم أقرب المقربين . . وكانا يتلاحيان كثيراً في محضره ، وعيّرها مرة أباها «الذي لايحسن الوضوء» فقالت له تعرض بأبيه – وهو عم عثمان – «أما والله لولا أنه غمه وأنه يناله عمه لأخبرتك عنه مالم أكن أكذب عليه» . . وغضب عثمان فتوعد مروان لئن تعرض لها ليسودن وجهه . ثم قال له : «والله لهي أنصح لي منك» . .

إن خلق الرجل لايقاس بمقياس أصدق من المرأة وأسبر منها لأغوار طبعه ، وقد يعز على هذا المقياس – مقياس المرأة – أن يسبر لنا أغوار عقله وأعماق بديهته ، ولكنه لايعز عليه أن يفرق بين الرجل الذي يحب ويطاع ويهاب والرجل الذي تنزل به الألفة منزلة الوهن والعجز في نظر من يألفونه قبل من يعرفونه على البعد أو لا يعرفون منه إلا القليل .

وهذا مقياس صادق من هذا الزواج الغريب أو الطارئ على المجتمع الإسلامي بعد فتوح العراق والشام وسائر الفتوح الأسيوية والإفريقية وهو مقياس قيس به رجال من النابهين على نحو واحد فلم يكن بينهم من هو أرجح فيه من عثمان ،

ولاسيما مقياس الشخصية الغالبة التي تؤثر فيمن يعاشرها ، وتصبغه بصبغتها ، كما تأثرت السيدة نائلة بإيمان عثمان وتقواه وكرم نفسه فنسيت نفرتها واختلاف عقيدتها وبيئتها وتحنفت على سنة زوجها كما قال من وصفوها في حياته وبعد مقتله . .

وفي ذلك العصر نفسه تزوج أناس من ولاة الدولة العربية بالعقائل والجواري في الحاضرة والبادية ، فكان منهم من تعود عاداتهن من الشراب على الطعام وسوغه لنفسه باختلاف المختلفين في الخمر وأنواعها ، وكان أمر هؤلاء ، ومن شاكلهم يرفع إلى الفاروق قبل خلافة عثمان فيحسمه على دأبه بتأديب من عصى والتنكيل بمن أصر على استباحته الشراب المحظور .

ومن لم يبلغ من ضعفه أن ينقاد هذا الانقياد لم يبلغ من شخصيته الغالبة على ذوي جواره وعشرته أي يصبغهم بصبغته ويحولهم إلى معيشة كمعيشته ، وهذه مَيْسُون بنت بَحْدل الكلبية من قبيلة نائلة بنت الفرافصة قد تزوجت بمعاوية ، وداره إلى جانب دارها ، ومقامه في دمشق أقرب إلى باديتها ، فلم تلبث أن سئمت مقامها وعافت القصر الذي تسكنه زوجة لأمير المؤمنين وأما للأمير بعده ، ونظمت أبياتها التي جرت مجرى الأمثال على لسان كل زاهد في مقامه حنينا إلى مألف عيشه الأولى ، وإن كانت دون ذلك المقام في الرغد والنعم . .

قالت ميسون تذكر القصر والبادية :

لَبَيْتٌ تخفقُ الأرواحُ فيه	أحب إليَّ من قصرٍ مُنيفِ
ولبس عباءةٍ وتقر عيني	أحب إليَّ من لُبْس الشفوفِ

وقالت تشير إلى زوجها :

وخرق[1] من بني عمِّي نحيفٌ	أحب إليَّ من علجٍ عليفِ
فما أبغي سوى وطني بديلاً	فحسبي ذاك من وطنٍ شريفِ

وذلك مع الفارق البعيد بين قصور الشام وبيوت الحجاز وبين سن معاوية وسن عثمان ، وبين ما ترجوه زوجة الخليفة بعد موته وما ترجوه زوجة معاوية وأم يزيد وأم

(١) الفتى الكريم الخلق .

شقيقته «أمة رب المشارق» وسيدة القصر تكاد أن تنفرد فيه وأن تغدو وتروح بين الحاضرة والبادية حين تشاء . .

***

هذه لمحة من ملامح «الشخصية العثمانية» لاتهمل فى مكانها من سيرته الخاصة ، ولعلها أهدى للمؤرخ من شيم كثيرة توضح له خلائقه التى يؤثر بها فيمن حوله ، ولا شك أنها تزداد وضوحا إذا اتضحت معها ملامح الشخصية التى تأثرت بهذا الأثر ، وهى السيدة نائلة التى جاءته نافرة تنعى غربتها وزواجها من غير بنى عمومتها ولم تلبث أن تحنفت وأخلصت لبعلها فى وفائها واعتقاده . .

فهذه شخصية قوية من بيئة عريقة فى القوة والاعتزاز بالعرف والقوة وقومها بنو كلب إحدى القبائل التى هجرت موطنها قديما فى الجزيرة العربية وحافظت على أرومتها وعصبيتها وفصاحتها ، فكانت إلى ما بعد الإسلام بعدة قرون مرجعا لمن يتقصى أساليب الفصحى أو يريد أن ينشئ أبناءه على خشونة البادية وصحتها ، ومهما تصعد مع أصولها فى القدم تجد فى أخبارها - بل فى أسمائها - لونا من ألوان هذه العصبية وهذه الخشونة وهذه العراقة البدوية التى لا يسهل على أبنائها وبناتها أن يتخلقوا بخلق غيرها . .

وتنسب هذه القبيلة إلى وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، ويقول النسابون : «إن وبرة ولد له كلب وأسد ونمر وذئب وثعلب وفهد وضبع ودب وسيد وسرحان» ثم يزيدون على ذلك بعد الإسلام : «إن من أشراف كلب الفرافصة بن الأحوص بن عمرو بن ثعلبة ، وهو الذى تزوج عثمان بن عفان ابنته نائلة بنت الفرافصة ، ومنهم زهير بن جناب بن هبل بن عبد الله بن كنانة ، ومن أسلافهم فى الإسلام دحية بن خليفة الكلبى وهو الذى كان جبريل عليه السلام ينزل فى صورته ، ومنهم حسان بن مالك بن جذيمة . . .» .

ويؤخذ من بعض أخبار الكنيسة الشرقية أن رؤساهم دانوا بالمسيحية تلبية لدعوة الرسل الأولين فى بادية الشام قبل أن تدين بها الدولة البيزنطية ، خلافا لما قد يُظن من أنهم دانوا مع الدولة القائمة فى بلاد الروم . .

وأيا كان مقطع القول فى ذلك فلا مراء فى قوة هذه القبيلة وعراقتها واعتزازها بأصولها واعتدادها بأنفتها وخشونتها كأنها ضرب من الإيمان أو آصرة من أواصر

الأنساب ، وقد عجزت قصور الملك فى دمشق أن تروض أم يزيد على البقاء مع بعلها فى القصر المنيف ، فلم يسع معاوية إلا أن يرسلها وابنها إلى باديتها عسى أن يستفيد من تلك النشأة منعة فى الخلق تواتيه يوم ينهض بأعباء الدولة التى أعدها له من صباه . .

فاذا كانت خلائق عثمان هى التى حببت إلى زوجته من تلك العشيرة أن تفارق النشأة التى عزت مفارقتها على أترابها فلن يرد على الخاطر أنها خلائق رجل إمعة أو رجل هزيل يذهب به من يذهب ويجىء به من يجىء ، ولابد لتردده وحيرته حين يقع منه التردد والحيرة أن يثاب بهما إلى باعث يعمل عمله فى طبائع الأقوياء وغير المستضعفين ولا ينحصر عمه فى النفوس التى برئت من القوة وخلصت للضعف والهزال . .

وقد ولدت له نائلة بنته مريم ، فكان مما يخطر على البال أن هذه التسمية من إيحاء أمها ومن بقايا حنينها إلى عقيدتها الأولى ، ولكن اسم مريم كان من الأسماء المحببة إلى عثمان وقد سمى به بنته من أم عمرو بنت جندب ، وهو أشبه أن يكون تحية للزوجة المخلصة من أن يكون متابعة لها فيما لا تعاب المتابعة فيه . .

***

تزوج عثمان على التعاقب تسعا من النساء ، ومات عن ثلاث منهن هن : نائلة وفاختة ورملة ، إذا صح أنه طلق أم البنين وهو محصور .

وقد ولد له تسعة من الذكور وسبع من الإناث ، ولم يولد له من بنتى رسول الله رقية وأم كلثوم غير عبد الله ابنه من رقية ، عاش إلى السادسة ثم نقر عينه ديك فورم وجهه ومات ، وسائر أبنائه من زوجاته الأخريات لم يؤثر عنهم أمر ذو خطر فى التاريخ ، وهى حالة من حالات السلالة الأموية لا نجزم بتعليلها على وجه واضح ، فهم على خلاف بنى هاشم الذين بقيت فيهم بقايا النجابة والعزيمة على استمرار القتل فى أصولهم وفروعهم ، وإنما كان بنو أمية فى المشرق والمغرب يعقبون كأنما يأتى العقب منهم على قدر الضرورة ، مع أنهم قد اتخذوا الجوارى إلى جانب زوجاتهم وتزوجوا من قريباتهم وغير قريباتهم ، فإذا تسلسل النسب منهم جيلا أو جيلين لم يمض على سوائه فى الجيل الثالث ، أو يرزقون الولد ولا يرزقون فيه النجابة والنبوغ ، وربما كان للنسب الدخيس فى أصولهم الجاهلية أثر فى هذه الحالة

المتلاحقة ، وأقرب من ذلك إلى التعليل المقبول أن أولئك الأصول فى الجاهلية لم يتصونوا فى المحادنة والمعاشرة كما شاع عن بعضهم ، فأصابهم من الآفات الجنسية ما كمن فى أعقابهم وتداركوه بالتبنى تارة والاستلحاق تارة والتماسك بين ذوى القربى حيث لا موضع للتبنى والاستلحاق . .

ونحن نومئ إلى هذه الملاحظة بسبيل الكلام على ذرية عثمان ، لأنها ملاحظة شوهدت فى تاريخ الأصول الأموية وشوهدت فى نسله وعشيرته ، وشوهدت فى أعمال خلافته ، فلها محل فيما خص أو عم من سيرته وتاريخه . .

٢ - شئون المجتمع:

منذ أسلم عثمان إلى أن تولى الخلافة تغير المجتمع العربى فى نطاق واسع ، وأصبحت الصبغة الإسلامية نوعاً من الصبغة العالمية يكاد أن يقرب بين أساليب المعيشة فى جميع أمم الحضارة الشرقية والغربية .

أسلم عثمان والدعوة الإسلامية محصورة فى آحاد معدودين يلتمسون النجاة بعقائدهم وأنفسهم وذويهم من مجتمع إلى مجتمع ومن بلد إلى بلد ، وصاحب الإسلام فى جهاده وفتوحه حتى عم الجزيرة العربية قبيل وفاة النبى عليه السلام ، وأصبح بذلك دينا عربياً يجمع بين قبائل العرب على اختلاف الأنساب والطبقات .

ثم صاحب الإسلام فى جهاده وفتوحه أيام حروب الردة وفتوح العراق وما جاوره من أرض فارس والروم ، ثم صاحبه فى جهاده وفتوحه حتى أوشكت هذه الفتوح أن تحيط بالعالم المعمور يوم تسلم زمامه من سلفه العظيم عمر بن الخطاب .

ولم تمض سنوات من خلافة عثمان حتى أحاط العالم الإسلامى بالعالم المعمور كله إلا ما كان منه فى أقصى المشرق أو أقصى المغرب ، فأصبحت الصبغة الإسلامية كما أسلفنا ، صبغة عالمية تشمل العربى والفارسى والرومى والمصرى والبربرى ، وتسلكهم كلهم فى دولة واحدة لأول مرة فى التاريخ . .

وليس الذى طرأ على المجتمع العربى خاصة أنه عرف الترف ولم يكن يعرفه ، أو عرف الثروة وكان محروماً منها ، فإن الترف والوفر قديمان فى الجزيرة العربية ، وزيادة المقدار لا تحسب من التغيير الجوهرى فى المجتمع إن لم تكن مصحوبة بالتغيير فى

نظرة الإنسان إلى الحياة ، وهذا الذى غير المجتمع العربى ، وغير المجتمع الإسلامى ، بعد اتساعه وامتداده إلى أقصى مدة فى خلافة عثمان .

إن الغنى المترف من عرب الجاهلية لم يكن يخجل من ترفه ، ولم يكن يحسب أنه يختلس به شيئاً ليس من حقه ويستمتع بشىء لا ينبغى لمروءته بل كان يبذخ فى ترفه ويفاخر نظراءه ببذخه ، ومن لم يدرك من الترف والبذخ حظاً كحظه فهو متطلع له ، حاسد عليه ، ناظر إليه كما ينظر إلى أمنية الحياة ، إن فاتته فقد فاته من حياته خير ما يتمناه . .

تغير هذا بعد الإسلام كل التغيير ، وأصبح الترف رذيلة مزدراه كائناً ما كان نصيب المترف من الجاه والثراء ، وأصبح الثراء نعمة دون النعمة الكبرى التى يتطلع إليها المسلم فى حياته الجديدة ، فهو وسيلة دون غاية ومتاع فى حاجة إلى تسويغ ، ثم لا مسوغ للترف فيه بأية حال .

وعلى هذا كبر مقدار الثروة التى ينعم بها أصحابها بعد أن تغير النظر إلى كثيرها وقليلها ومسوغاتها ومحظوراتها ، فربما بلغت ثروة الرجل الواحد فى خلافة عثمان ما يعدل ثروة السادة المترفين جميعاً على آخر عهد الجاهلية ، وما يحسب حتى فى زماننا هذا غنى مفرطاً عند أغنى الأغنياء .

قيل فى مصادر متعددة إن عبد الرحمن بن عوف خلف ذهبا كان يقطع بالفؤوس حتى تَمْجَل أيدى الرجال ، وترك ألف بعير وثلاثة آلاف شاة ومائة فرس ، وقسم ميراثه على ستة عشر سهما فبلغ السهم ثمانين ألف درهم ، وكان يزرع بالجرف على عشرين ناضحا ويتجر فيكسب من التجرة مئات الألوف .

وكان كلما اجتمع له من الربح مدخر كثير فرقه على الغزاة وتصدق به على الفقراء . قال ابن عباس : «مرض عبد الرحمن بن عوف فأوصى بثلث ماله فصح فتصدق به ، ثم قال : ياأصحاب رسول الله ﷺ كل من كان من أهل بدر له على أربعمائة دينار ، فقام عثمان وذهب مع الناس ، فقيل له : ياأبا عمرا ألست غنيا؟ قال : هذه وصلة من عبد الرحمن لا صدقة ، وهو من مال حلال ، فتصدق عليهم فى ذلك اليوم بمائة وخمسين ألف دينار» .

وكان كلما اجتمع له عدد من العبيد أعتقهم ووصى لهم بما يكفيهم

ولما مات الزبير بن العوام طلب أبناؤه ميراثه ، فأبى عبد الله أن يقسم بينهم حتى

ينادى بالموسم أربع سنين من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه ، لأنه كان يؤتمن على الودائع ممن يترددون على الحجاز للتجارة ، فلما انقضت أربع سنين قسم بينهم ما بقى من ماله خالصاً فرذا هو خمسون ألف ألف ومائتا ألف .

وكان طلحة يُغل بالعراق ما بين أربعمائة ألف إلى خمسمائة ألف ، ويُغل بالسراة عشرة آلاف دينار ، وكان لايدع أحدا من بنى تيم عائلا إلا كفاه مؤونة عياله ، ويزوّج أياماهُم ويقضى دَيْنَ غارمهم ، وأخرج صاحب الصفوة فيما أخرج من أخباره أنه باع عثمان أرضا بسبعمائة ألف حملها إليه ، فلما جاء بها قال إن رجلا تبيت هذه عنده فى بيته لا يدرى ما يطرقه من أمر الله لغرير بالله . . فبات ورسله تعتلف فى سكك المدينة حتى أسحر وما عنده منها درهم .

وعن سعدى بنت عوف امرأته أنها دخلت عليه يوما فرأته مغموماً فسألته ، ما شأنك؟ . . قال المال الذى عندى قد كثر وأكربنى ، قالت : وما عليك؟ . . اقسمه فقسمه حتى ما بقى منه درهم ، وقال خازنه : كان المال الذى فرقه يومئذ أربعمائة ألف . .

ونحن لانشك في عظم هذه الثروات التى توافرت لهؤلاء النخبة من أجلاء الصحابة شيئاً فشيئاً من أيام النبى عليه السلام إلى ما بعد قيام الدولة الأموية ، ولا نجرى على عادة المحدثين الذين يتلقون أخبار العصور الماضية جملة واحدة بالشك أو بالنفى من غير بينة ، فإن الرفض المطلق كالتسليم المطلق كلاهما من الآيات التى تحكم حكمها بغير تصرف ولا انتقاد ، ومن الجائز أن الناقلين لم يتحروا الدقة فى حساب الأرقام بالملايين والألوف والمئات كما نحسبها اليوم ، ولكن الذى نعتقده أن مقادير تلك الثروات أكبر وليست بما توحيه تلك الأرقام ، لأنها اجتمعت من أربح التجارات فى جميع العصور ، وهى التجارة المتبادلة بين الشرق والغرب من طريق العراق والشام والجزيرة العربية مجتمعات .

***

لقد كان الملأ من قريش أغنياء مفرطين فى الغنى أيام الجاهلية ، وكان موردهم كله من مواصلات الحجاز بين اليمن والشام ، ولم يكن لهم فوق ذلك سلطان على بقعة وراء الحجاز ، بل كان سلطانهم فى الحجاز نفسه عاجزا عن تأمين قوافلهم بغير المساومة بينهم وبين قبائل الطريق . .

فلما استقر الأمن فى الجزيرة العربية وامتدت الفتوح إلى العراق والشام وفلسطين ومصر ، واطمأنت القوافل على هذه الطرق شرقاً وغرباً وإلى الشمال والجنوب ، واتسعت مواصلات التجارة العالمية فى تلك البقاع ، لم يكن مورد فى العالم قط أعظم ولا أربح من هذا المورد الذى تهيأ لبيوت التجارة العريقة فى قريش ، ويكفى أن يسلم هذا المورد سنة فى كل سنتين أو ثلاث ليغنم منه التاجر الكبير ألوف الألوف ، ويأخذ من ربح سنة ما يعوض وقف التجارة سنوات .

ومن المعلوم فى العصور الحديثة أن شركة الهند الشرقية جمعت الملايين من أرباح تجارة دون هذه التجارة فى السعة والضمان ، إذ كانت تؤدى الضرائب والأتاوات فى البحر والبر . ولا تملك خطوطاً من المواصلات كتلك الخطوط التى تمهدت لأصحاب التجارات فى الحجاز ، أما أصحاب هذه التجارات فلم تكن عليهم ضريبة مفروضة غير الزكاة ونفقات الحراسة ، وكانت أرباحهم معدناً خالصاً أو عملة مقبولة فى كل جهة من جهات العالم يومذاك ، دون أن تتعرض لتقلب المضاربات فى الأسواق بين أقصى المشرق فى الهند وأقصى المغرب على الشواطئ الأطلسية .

فإذا قام على هذه التجارة العالمية عشرون بيتاً أو ثلاثون بيتاً من بيوت التجارة العريقة فى مكة والمدينة فليس من المبالغة أن يقال عنها أنها كانت تملك الملايين وتعمل الفؤوس فى حطام الذهب والفضة ، فربما كانت المبالغة هنا إلى القلة لا إلى التزيد فى التقدير .

ويهمنا أن نلتفت إلى مصدر الثروات من التجارة تصحيحاً لوهم الواهمين أنها قد اجتمعت كلها من غنائم القتال ، فإن عطاء المقاتلين لم يكن يتفاوت هذا التفاوت فى الأنصبة بين أكبر عطاء وأصغر عطاء ، ولم يكن في وسع طلحة ولا الزبير ولا عبد الرحمن بن عوف أن يجمعوا من أنفال القتال ثروة تزيد على نصيب الأجناد بمثل ذلك الفارق الكبير .

وليس هذا كل ما يهم من تحقيق مصدر الثروة أو من الرجوع بأكثره إلى التجارة دون غنائم القتال ، إذ المهم فى الواقع أن المجتمع الذى تدور ثروته على الأعمال التجارية غير المجتمع الذى تدور ثروته على أعطية الجند من غنائم القتال دون سواها ، فهما مجتمعان متغايران فى آداب المعاملة وفى موازين الأخلاق وفى النظر إلى متع الحياة ، وإذا التقيا معا فى أقل من عمر الرجل الواحد فلا قرار ولا تفاهم بين موازين التجارة وموازين الجهاد إلى حين .

قال محمد بن سيرين : «كثر المال فى زمن عثمان فبيعت جارية بوزنها وفرس بمائة ألف درهم ، ونخلة بألف درهم» .

وهذا الذى كان يقال عنه فى الزمن الماضى إنه وفرة الخير ودرة الرزق . . وهذا الذى نقول عنه اليوم إنه آفة «التضخم» فى النقد مع فارق بعيد بين أحوال عصرنا وأحوال العصور الماضية : ذلك هو الفارق بين عملة الورق وعملة الذهب والفضة ، فإذا رخص الذهب والفضة كما حدث فى ذلك العصر فقد رخص المال فى جوهره ولم تكن ثمة غرابة فى كتل الذهب التى تقسمها فؤوس العبيد ، ولا حيلة فى مثل تلك الحالة لمن يعيش على مورد محدود ولا يقتنى من الذهب والفضة ما يكفيه من الكفاف ، وليست لقلة ما يشترى من المتاع المطلوب ، وبعضها يطلب ولا يوجد عند طلبه فى الأسواق .

هذه الأزمة بلغت غايتها فى خلافة عثمان ، ولكنها بدأت بعد الهجرة إلى المدينة واستئناف مسير القوافل إلى رحلتى الصيف والشتاء ببضع سنوات .

والإسلام لا يمنع التجارة ولا ينكر الثروة ، ولكنه يمنع الترف وينكر كنز الذهب والفضة ، ويأمر بإنفاق المال فى المنافع والمرافق كما جاء فى القرآن الكريم ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ ﴾ ويتقى أشد التقية أن يترف أناس ويعدم أناس آخرون . .

***

ولم يصعب على المجتمع الإسلامى تدبير مشكلة الثروات الكبيرة فى السنوات الأولى من الدعوة ، أو على الأصح أن الثروات الكبيرة لم تكن مشكلة من مشكلات المجتمع فى تلك السنوات سواء من جانب الأغنياء أو جانب الفقراء ، فإن أصحاب تلك الثروات كانوا يتعوذون منها ويشفقون من فتنتها ويسارعون إلى تفريقها على مستحقيها من الغزاة والمجاهدين وعلى المحرومين والمعوزين ، وكان تخصيص الغزاة بالصلات التى تأتيهم من فيض تلك الثروات تشريفاً لهم يتنافسون عليه ولا يأنفون منه ، بل كان منهم من يأبى أن تفوته هبة يراد بها أهل بدر أو غيرهم من أصحاب المغازى والسرايا ، كأنه يرى فى ذلك إنكارا لصفته وكرامته وسابقته فى جهاد ، وقد تقدم أن عثمان ذهب مع الناس إلى عبد الرحمن ابن عوف ليأخذ حصته من العطاء الذى نذر تفريقه على البدريين ، وموقف عثمان

هنا خاصة - ونحن بصدد ترجمته - يصور لنا شعور الغنى والفقير يومئذ بشرف العطاء الذى يخص به البدريون ومن حذا حذوهم فى غزوات الجهاد ، فقد كان عثمان رضى الله عنه يفرق أضعاف ما أخذه من عبد الرحمن بن عوف ، ولكنه أشفق أن يدخل البدريون فى حساب ولا يكون هو مثلهم من الداخلين فيه ، وبخاصة حين عيَّره بعضهم أنه تخلف عن غزوة بدر . ودفع عنه هذا التعبير بما اعتذر به من إذن النبى له بالتخلف ومن حسبان سهمه فى الغنيمة وهو غائب . فمثل هذا الشعور الذى يشمل الواصل والموصول من الغزاة والمجاهدين لا يجعل الثروة الكبيرة مشكلة يضيق بها المجتمع بين أغنيائه وفقرائه ، إذ هى ودائع عند الأغنياء يحرصون على تفريقها ولا يحرصون على اكتنازها واستبقائها ، ثم هم لا حاجة لهم إلى اكتنازها واستبقائها لأنهم كانوا يعافون الترف ويعرضون عنه إعراضهم عن وصمات الخلق التى لا تجمل بالرجل فى دينه ولا فى دنياه وكان أحدهم يشكو الحكة فلا يسمح لنفسه بلبس الحرير وهو قادر عليه إلا أن يستأذن فى ذلك رسول الله فيأذن له على سبيل الفتيا لا على سبيل التسلط من الرسول فى لباس المسلم وطعامه ، فما كان هذا التسلط مما يفرض الرسول لنفسه أو يفرضه المسلمون للرسول فى غير ما يتولاه من التبليغ والتشريع ، وقد كان الزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف ممن أذن لهم الرسول بلبس قميص من الحرير فى بعض الغزوات ضرورة لا ترفا ولا سرفا ، والمقام غير مقام الترف والسرف فى شكة الجهاد . .

وابتدأت الخلافة الأولى على عهد الصديق ومشكلة الثروات الكبيرة مكبوحة الجماح مملوكة الزمام ، ثم أحس الخليفة الأول بزمامها يضطرب فى يديه بعد اتساع التجارة وامتداد الفتوح ، فاتخذ الحيطة لفتنتها واستبقى عنده كبار الصحابة ليجمع بين معونتهم له فى الرأى والعمل ، وبين تجنيبهم الفتنة ومآزق الولاية ، وكان يتذمر من ترخص بعض الصحابة فى أمور تؤذن بما بعدها فقال لعبد الرحمن بن عوف وهو على سرير الموت : «ما لقيت منكم أيها المهاجرون أشد من وجعى ، إنى وليت أمركم خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر دونه ، ورأيتم الدنيا قد أقبلت ولما تقبل ، وهى مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربى - أى المنسوب إلى أذربيجان - كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان» .

ثم قال يعظه ويحذره : «والذى نفسى بيده لأن يقدم أحدكم فتضرب عنقه خير

له من أن يخوض غمرات الدنيا ، ثم أنتم غدا أول ضال بالناس يميناً وشمالا . ولاتضيعوهم عن الطريق . ياهادى الطريق جرت!»

ولم يكن عمر بحاجة إلى التحذير من عواقب انطلاق الصحابة فى الأقطار ، بل ربما كان يحذرهما حيث لم يحذرها صاحبه ، ولكن الصديق رضوان الله لم ينس تحذيره فى موقف الأمانة فقال له وهو يجود بنفسه : «واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله ﷺ الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم لنفسه وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم ، فإياك أن تكونه ، وأعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله . .» .

كلمات لا تدرى كيف تحيط بما فيها من فهم لكل شىء فى إبانه وقبل موقعه : فهم لطبائع الناس ، وفهم للخطر كيف يأتى ومن أين يبدأ ، زلة واحد تتبعها حيرة من الكثيرين ، وماذا يصد ذلك الخطر من الزلة ومن الحيرة؟ . . تصده القدوة بولى الأمر ، فلن يزالوا خائفين منه ما خاف الله .

وهكذا قد كان .

***

على أن المشكلة ظلت فى قبضة الزمام على عهد عمر ، بين قوة الخليفة وتورع الأجلاء من الصحابة ، وشواغل الجهاد والفتح قبل استفحال قضاياه ونقائضه ، وما برح الصحابة الكبار يتورعون من الشغلان بالثروة إلى ما بعد أيامه ، فكان أقدرهم على التجارة وتثمر المال عبد الرحمن بن عوف يخجل أن يراه أحد منصرفاً إلى شئون متاجره ومزارعه ، وحدث ابنه إبراهيم عنه فقال : «إن رجلا زار المدينة ليلقى أصحاب رسول الله فلقيهم جميعاً إلا عبد الرحمن بن عوف ، وسأل عنه فقيل له أنه فى أرضه بالجرف ، فلما جاءه ألفاه واضعاً رداءه وبيده مسحاة يحول بها الماء فاستحى عبد الرحمن وأخذ رداءه وألقى المسحاة» .

قال إبراهيم : «فسلم الرجل ثم قال : جئتك لأمر ثم رأيت أعجب منه . . هل جاءكم إلا ما جاءنا وهل علمتم إلا ما علمنا؟ . . قال عبد الرحمن ما جاءنا إلا ما جاءكم وما علمنا إلا ما علمتم فقال الرجل : فما لنا نزهد فى الدنيا وترغبون فيها ونخف إلى الجهاد وتتثاقلون عنه وأنتم خيارنا وسلفنا وأصحاب نبينا ﷺ؟ . . فعاد

عبد الرحمن يقول : إنه لم يأتنا إلا ما جاءكم ولم نعلم ما قد علمتم ، ولكنا ابتلينا بالضراء فصبرنا ، وابتلينا بالسراء فلم نصبر»

وقد دعا الأمر بعد قيام الفاروق بالخلافة إلى مضاعفة الحيطة فى كل تدبير لجأ إليه الصديق على اتفاق مع صاحبه لاتقاء الفتنة ومصاحبة التغير الطارئ بالإباحة التى تلائمه ، وجعل يشتد فى حيطته كلما تباعدت المسافة بين المجتمع الإسلامى فى أوائل عهد الدعوة وبين هذا المجتمع بعد افتتاح العراق وأقاليم فارس الغربية والشام ومصر إلى حدود إفريقية الشمالية والسودان . .

فمن سياسته فى ذلك أنه ثابر على استبقاء كبار الصحابة إلى جواره فى المدينة ، وكان منهم من يسأله الخروج للغزو وللجهاد فيثنيه عن ذلك ويلقى فى روعه معذرته المشهورة : «إن له فى غزوه مع رسول الله ما يكفيه ويبلغه . . وهو خير له من الغزو اليوم» ثم يقول له : «خير لك ألا ترى الدنيا ولا تراك» . .

وانتهج فى محاسبة الولاة خطة حاسمة لا هوادة فيها مع أحد ممن أحسن أو أساء ، فراقبهم جميعاً أشد مراقبة واتخذ موسم الحج موعدا لمراجعتهم وسماع أخبار الرعية عنهم ، ومنهم من كان يعزله ويستدعيه إليه لغير جريرة يؤخذ بها إلا أنه لا يريد - كما قال غير مرة - أن يحمل فضل عقله على الناس ، وأنه يخشى أن يفتن الناس به إن لم يفتن هو بالناس مع فتنة السلطان وفتنة النجاح .

وحظر على المقاتلين أن يملكوا الأرض والعقار ، وكان له كما قلنا فى عبقرية عمر «نظام اقتصادى يوافق مصلحة الدولة فى عهده ، فكان يحض على التجارة ويوصى القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك ، ولكنه أبقى الأرض لأبنائها فى البلاد المفتوحة ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند فى الجيش القائم ، وإذا أسلم أحد الذميين أخذت منه أرضه ووزعت بين أهل بلده وفرض له العطاء ، وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم وأن يعتصم الجند الإسلامى من فتن النزاع على الأرض والعقار ، ومن فتن الدعة والاشتغال بالثراء والحطام ، وربما أغضى عن كثير فى سبيل الإعانة على تعمير البلاد بأهلها فصفح عن أهل السواد - العراق - ليأمنوا البقاء فيه . . مع أنهم حنثوا بالعهد وأعانوا الفرس على المسلمين فى أثناء القتال ، ويلوح من كلامه

فى أخريات أيامه أنه كان على نية النظر فى تصحيح النظام الاقتصادى وعلاج مشكلة الفقر والغنى على نحو غير الذى وجدها عليه فقال : «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء» ولم يرد فى كلامه تفصيل لهذه النية . ولكن الذى نعلمه من آرائه فى هذا الصدد كاف لاستخلاص ما كان ينويه فعمر على حبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبدا بين المساواة فى الآداب النفسية والمساواة فى السنن الاجتماعية ، فكتب إلى أبى موسى الأشعرى :

«بلغنى أنك تأذن للناس جما غفيراً ، فإذا جاءك كتابى هذا فأذن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين ، فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة . . ولكنه لما رأى الخدم وقوفا لا يأكلون مع سادتهم فى مكة غضب وقال لسادتهم مؤنبا : ما لقوم يستأثرون على خدامهم؟ ثم دعا بالخدام فأكلوا مع السادة فى جفان واحدة . .

«فالمساواة فى أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفى التفاضل بالدرجات ، ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ويعرضون عن العمل واتخاذ المهنة ، فكان يقول لهم فى خطبه : «يامعشر الفقراء ارفعوا رؤوسكم! . . فقد وضح الطريق فاستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالا على المسلمين» وكان يوصى الفقراء والأغنياء معا أن يتعلموا المهنة ، فإنه يوشك أن يحتاج أحدهم إلى مهنة وإن كان من الأغنياء . . فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما انتواه من أخذ فضول الغنى وتقسيمها فى وجوه البر الصلاح . .

على أن عمر يصح أن يسمى مؤسسا لديوان الوقف الخيرى على الوجه الذى نعهده الآن . فقد أنشأ بيت الدقيق لإغاثة الفقراء الذين لايجدون الطعام ، وأصاب قبل خلافته أرضا بخيبر فاستشار النبى ﷺ فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بريعها ، فجعلها عمر لاتباع ولا توهب ولا تورث ، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم ، ولا جناح على من وليها أن يأكل بالمعروف ويطعم صديقاً فقيرا منها» .

وكان عمر يستقصى عادات المسلمين فى معيشتهم حيث تفرقوا من بقاع الدولة الإسلامية ، فسأل من عنده من أجلاء الصحابة : أن الناس قد دنوا من الريف فما

ترون فى حد الخمر؟ . . وكان ممن سألهم عبد الرحمن بن عوف فقال : نرى أن نجعله كأخف الحدود ، فجلد فيه ثمانين . .

***

ثم انتهت خلافة عمر والمجتمع الإسلامى مجتمعان! . . أحدهما ماض ولما يمض بأجمعه ، والآخر مقبل ولما يقبل بأجمعه ، وأوشك عمر على قوته أن يحار فى تدبيره ، وقال الشعبى كما تقدم أنه قضى وقد أوشكت قريش أن تمله لشدته ووقوفه لها بحيث وقف حائلا بينها وبين نزعاتها ومطامحها فى دنياها الجديدة ، بين ماض ينصرم ، وحاضر يتقلب ويكاد أن ينهزم ، ولكن الثقة به لم تضعف مع طوالع المجتمع الجديد بل زادته هذه الطوالع المتقلبة تمكيناً على تمكين ، وجعلت من يخالفه يخجل من مخالفته ، لمكان تلك الثقة القوية ولاستطاعة النفوس أن تغالب محن الحوادث ولا تستسلم لغوايتها . ولعلنا لانجد لهذه المغالبة مثلا يبرزها كما يبرزها مثل عبد الرحمن بن عوف الذى بلغ غاية النجاح فى المجتمع الجديد وكان قطبا من أعظم الأقطاب في مجتمع الدعوة والخلافة الأولى ، فإنه شهد بدرا والمشاهد كلها ، وكتبت له حصة وافية من أنفال الغزوات وغنائها ، وفاضت ثروته من التجارة والزراعة حتى فرقها بعد مرة ، وعاش إلى أيام عثمان وكان صاحب القول الفصل فى اختياره للخلافة لأنه ارتضى أن يخلع نفسه منها ليكون له الرأى فيمن يختار من المرشحين لها ، فهو بحق مثل نادر للمغالبة النفسية بين ما استقبل واستدبر من حياته على عهد النبى صلوات الله عليه وعهد عمر وعهد عثمان ، وقد كان كما أخرجه البخارى يقول كلما رأى وفرة المال عنده : «خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا» . . وكان يصوم ثم يؤتى له بالطعام فيقول «قتل مصعب بن عمير وهو خير منى فكفن فى بردة إن غطى رأسه بدت رجلاه ، وإن غطيت رجلاه بدا رأسه ، وقتل حمزة وهو خير منى فلم يوجد له ما يكفن فيه إلا برده ، ثم بسط لنا من الدنيا ما بسط وقد خشينا أن تكون حسناتنا قد عجلت لنا» . .

فهذه المغالبة لمحنة المجتمع الجديد ، وتلك الثقة بالفاروق ، وتلك القوة فيه ، قد حفظت زمام الدولة فى قبضة وليها ولم تذهب بالمخالفة له إلى مدى أبعد مما سماه

الشعبى بالملل وأحسن فى وصفه ، فلو لم تكن هناك ثقة مكينة لجاوز الأمر الملل إلى السخط والتمرد ، وألفى هنالك من يتمرد ليمضى مع الماضى ومن يتمرد ليقبل مع المستقبل ، ولكنها حالة لم تدم طويلا بعد خلافة الفاروق إذ كان فى الناس من يغضب باطلا ولا يخجل من غضبه بالباطل ، وكان منهم من يغضب حقا وليس هو على يقين أن ولاة الأمر أحق منه وأجدر بالفضل والطاعة ، وكان منهم من يحار بين الفريقين ولا يدرى كيف يهتدى فى حيرته إلى الصواب .

الفصل الرابع

المبـــايعـــة

إذا لخصت سنة الصديق أو سنة الفاروق فى تولية العهد بعدهما ، كانت خلاصتها أنها إبراء للذمة أمام الله ، درءا للخلاف ، وحرصا على الوحدة الإسلامية . .

ولابد من استحضار هذه الحقيقة لمنع كل شبهة ، وتأويل كل قصد ، ودفع كل فرية عند تعليل الطريقة التى اختارها كلاهما لتحقيق هذه البغية واختلفا فيها ظاهراً ، ولا اختلاف بينهما باطناً فيما قصدا إليه . .

فلا تدبير هناك ولا احتيال لغاية يرميان إليها غير تلك المصلحة أو تلك الوحدة . ومن ظن أن الصديق قد اختار عمر ليقصى عن الخلافة غيره ، أو ظن أن عمر قد اختار جماعة الشورى ليرجح الكفة فى جانب واحد منهم على سواه فهو ينكر عليهما الإسلام ولا ينكر عليهما حسن النية أو حسن التدبير وحسب ، فإن أحدا يؤمن بأنه محاسب على نيته وعمله إذ يودع الدنيا ويستقبل الآخرة . ، لن يحتال ولن يدبر لهواه وهو يعلم أنه يغضب الله بما يفعل ، ولو كان لأحدهما هوى فى أحد لاختار أبو بكر من بنى تيم ، واختار عمر من بنى عدى أو بنى الخطاب ، وما كان ينبغى لهما الهوى وهما فى سطوة الدنيا وجاه الولاية ، فكيف ينبغى لهما وهما مقبلان على الموت مؤمنان بحساب لاشك فيه؟

لم يكن هناك نظامان دستوريان كما وهم بعض المحدثين الذين أرادوا أن يعيّنوا بلغة الدساتير العصرية نظاماً لتولية العهد فى سابقة الصديق أو سابقة الفاروق ، وإنما هما نظام واحد يتبعه كلاهما فى موضع صاحبه ، فما نحسب أن أبا بكر كان مسمياً أحداً بعينه لو كان فى موضع عمر ، وما نحسب أن عمر كان محجماً عن التسمية لو كان فى موضع أبى بكر ، وليس البحث عندهما أى أولياء العهد أفضل وأحب إليهما ، ولكنما البحث الذى يعينهما ويشغلهما : أيهم أحب إلى المسلمين وأقْمَن أن يجمعهم على بيعة واحدة وكلمة متفقة ، ولا يعقل أن أحداً منهما كان يعلم فى طويته أن ثمة وسيلة غير الوسيلة التى اختارها لتحقيق الوحدة المنشودة ثم

يعدل عنها ، ليأثم فى حق ربه وحق دينه وحق رسوله وحق المسلمين كافة ، تبرعا منه بالإثم حيث لا حاجة ولا مصلحة ولا فرصة بعدها للندم والتوبة .

حضرت الوفاة أبا بكر ، فسأل نفرا من نخبة الصحابة عمن يتولى أمور المسلمين بعده ، فذكروا عمر وأشار بعضهم إلى شدته ، فقال لهم أنه كان يشتد لأنه يرانى رقيقاً فإذا وكل إليه الأمر فلا خوف من شدته . وروى محمد بن سعد أن جماعة من الصحابة دخلوا عليه لما عزم على استخلاف عمر ، فقال له قائلون منهم : «ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد ترى غلظته؟» فقال أبو بكر : «أجلسونى» ثم جلس فقال : «أبالله تخوفوننى؟ خاب من تزود من أمركم بظلم ، أقول : أننى قد استخلفت عليهم خير أهلك . . أبلغوا عنى ما قلت لكم من وراءكم» . .

ثم اضطجع وجاء عثمان بن عفان فجعل يملى عليه : «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عهد أبو بكر فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلا فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إنى استخلفت بعدى عمر بن الخطاب فاسمعوا وأطيعوا ، فأنى لم آل الله ورسوله ودينه ونفسى وإياكم خيراً ، فإن عدل فذاك الظن به وعلمى فيه ، وإن بدل فلكل امرىء ما اكتسب ، والخيرَ أردت ولا علم لى بالغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته» .

وكان يملى وتدركه غشية ، فلما قال : «استخلفت بعدى» ولم يذكر اسما أتم عثمان وصيته باسم عمر بن الخطاب . ثم أفاق أبو بكر فسأله : ماذا كتبت؟ فأعاد عليه العبارة كما زادها ، فدعا له وبارك عليه ، وقال له : هكذا الظن بك ، لو كتبت اسمك لكنت لها أهلا» . .

والقوم فى معرض المحاسبة لأنفسهم أمام الأمانة العظمى لا يصطنعون زخارف المجاملات التى يتلهى بها طلاب الظرف ورواد الأندية فى زماننا هذا وقبل زماننا ، فما كان عمر ليتنحى عن الأمانة وقد اختير لها وهو يعلم أنه أقدر عليها . . فإنه محاسب على إنكاره حقه كما يحاسب على إنكار حق غيره إذا اجتمعت له صفة الولاية دونه . فكان يتولى الخلافة وهو يقول : «لو علمت أن أحدا أقوى على هذا الأمر منى ، لكان أن أقدم ، فتضرب عنقى ، أحبَّ إلىَّ من أن آليَه» . .

ثم حضرته الوفاة فلم يعهد فى بادئ الأمر لأحد ، ونقل إليه حديث الناس إذ يقولون : «إنه غير مستخلف ، ولو كان له راعى إبل أو راعى غنم ثم ترك رعيته كان قد فرط فى أمانته ، فماذا يقول الله عز وجل إذا لقيه ولم يستخلف على عباده؟» فأصابته كآبة ثم نكس رأسه طويلا ثم رفعها وقال : «إن الله تعالى حافظ الدين ، وأى ذلك فقد سن لى ، إن لم أستخلف فإن رسول الله ﷺ لم يستخلف وإن أستخلف فقد استخلف أبو بكر» . . . . . .

وعاوده فى هذا الحديث فجعل يسأل كأنما يسأل نفسه : «من أستخلف؟» وروى عمر بن ميمون الأودى أنه قال بعد ذلك : لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته وقلت لربى إن سألنى : سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ، ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً استخلفته وقلت لربى إن سألنى : سمعت نبيك يقول : إن سالما شديد الحب لله تعالى» . . فقال له المغيرة بن شعبة : «أدلك عليه . عبد الله بن عمر» . فنهره قائلا : «قاتلك الله! والله ما أردت الله بهذا . ويحك! كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته؟ لا أرب لنا فى أموركم ، فما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى ، إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شراً فقد صرف عنا . بحسب آل الخطاب أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد . أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى ، فإن نجوت كفافا لاوزر ولا أجر إنى لسعيد . . . . .» .

ثم قال : «انظر ، فإن أستخلف فقد استخلف من هو خير منى وإن أترك فقد ترك من هو خير منى ، ولن يضيع الله دينه . . . . . .

وراجع نفسه وروجع فى الاستخلاف مرة بعد مرة فقال : «ما أردت أن أتحملها حيا وميتا . عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ أنهم من أهل الجنة ، وهم : على ، وعثمان ، وعبد الرحمن ، وسعد ، والزبير ، وطلحة . فليختاروا منهم رجلا ، فإذا ولوا منهم واليا فأحسنوا مؤازرته وأعينوه» . . .

ثم دعا بهم فحضروا إلا طلحة كان غائباً ، فقال لهم : «إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولايكون هذا الأمر إلا فيكم ، وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض - وإنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم ، ولكنى أخافكم فيما بينكم فيختلف الناس» . .

ووضع رأسه وقد نزفه الدم ، فتناجوا بينهم حتى ارتفعت أصواتهم ، وقال

عبد الله بن عمر : «سبحان الله! إن أمير المؤمنين لم يمت بعد!» فسمعه فانتبه ، وقال : «أعرضوا عن هذا ، فإذا مت فتشاوروا ثلاث أيام ، وليصل بالناس صهيب ، ولا يأت اليوم الرابع إلا وعليكم أمير منكم ، ويحضر عبد الله بن عمر مشيرا ولا شيء له من الأمر ، وطلحة شريككم في الأمر ، فإن قدم في الأيام الثلاثة فأحضروه أمركم ، وإن مضيت الأيام الثلاثة فامضوا» . . .

والتفت سائلا : «ومن لى بطلحة؟» قال سعد بن أبى وقاص «أنا لك به ولا يخالف إن شاء الله تعالى» .

وقال لأبى طلحة الأنصارى : «يأبا طلحة ، إن الله طالما أعز بكم الإسلام ، فاختر خمسين رجلا من الأنصار ، فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم» ، وقال لصهيب : «صل بالناس ثلاثة أيام ، وأدخل هؤلاء الرهط بيتا وقم على رؤوسهم ، فإن اجتمع خمسة وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف ، وإن اتفق أربعة وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما وإن رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله ابن عمر ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن ابن عوف واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع فيه الناس» . . . .

***

على هذا الوجه أبرأ عمر ذمته من قضية الاستخلاف . .

وعلى هذا الوجه نرى عقل رجل من أولئك الرجال الأفذاذ يعمل فى تفصيلات هذه القضية التى واجهته بجميع عقدها ومخاطرها لأول مرة فى حياته ، وهو يفارق تلك الحياة : يقلبها على جميع الوجوه ، ويفرض لها جميع النتائج ، ويطرق أبوابها فيفتح منها ما ينبغى أن يفتح ، ويغلق منها ما ينبغى أن يغلق ، ويلاقى من جانب ما يخشاه من جانب ، ويختار الرجال ثم يختار الخطط على كل احتمال من إحسان أو إساءة ومن وفاق أو شقاق ، ويفعل ذلك فى غمرات الموت بين صرعات الألم من جراحه القاتلة ، ويعالج به أمرا لم يعالج من قبل على هذا المثال أو على مثال غيره ، وكأنما هو من خبراء الاختصاص فى دساتير الحكم درسها وتلقى دروسها من أساتذتها الذين سبقوه إلى تقريرها وتدوين وقائعها ومواقعها ، وجلس ليوازن ويقابل ، ويطابق ويوافق ، ومن حوله الأعوان يلبون ما يطلب ويستدركون ما يفوت ،

وينتهون فى سعة من الوقت إلى قرارهم وهم وادعون آمنون أن يصيبهم مكروه من مغبة ما قرروه .

ولو كان تفكيره لعذر يتكلم به أو لحجة يسكن إليها لقد كان حسبه أن يبرئ ذمته بالطمأنينة إلى الدين فى حراسة الله ، أو كان حسبه أن يبرئ ذمته بما جرى عليه الأمر فى عهد رسول الله ، ولكنه لا يلتمس عذراً يقال وحسب ، أو حجة تقنع وكفى ، بل يسأل نفسه ويحاسبها على اختلاف الأمور بين عهد وعهد وتباين الأعذار من حال إلى حال ، فلا يدع من جوانب القضية شبهة يوردها من يحاسبه إلا أوردها لنفسه ، كأنما هو حامل الميزان . .

فمن سأل عن معجزات العقائد فى كواكب السماء أو أطواد الأرض فهذه معجزة المعجزات التى تأتى بها العقيدة فى نفس الإنسان : تخرجه من جوف الصحراء كفؤاً لأعضل المعضلات بخلقه ، وكفؤاً لها بعقله ، وكفؤاً لها بعمله ، ونمطا من الشعور بالتبعات لايجارى ، ونمطا من القدرة على النهوض بها يطول الزمن بأبناء الحضارات قبل أن يبلغوه وقبل أن يعرفوه . . .

ومن آيات بعد النظر فى سبر أغوار الرجل أنه جعل للترجيح بين أصحاب الشورى رجلين : هما عبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن عوف ، فأما عبد الله بن عمر فهو الذى نحاه عن المشاركة فى الخلافة وأعده للترجيح بين المختلفين وليس له من الأمر شيء ، وأما عبد الرحمن بن عوف فلم يلبث أن نحى نفسه ليقبل حكمه ، فكان بحق أصلح المتشاورين لترجيح إحدى الكفتين .

ومن آيات بعد النظر فى الاختيار وسبر الأغوار أنه أقام أبا طلحة الأنصارى على رأس خمسين ممن يختارهم لقمع الفتنة فى مهدها إذا اختلف المتشاورون ، فكان أبو طلحة عند ظنه حزما وتَقيَّةً قال للقوم وقد تنازعوا الرأى : «لقد حسبتكم تتدافعونها ولا تتنافسونها» . ثم أقسم لا يمهلهم لحظة بعد الأيام الثلاثة ، ثم هو صانع بهم ما أمر به أمير المؤمنين . . . . .

ومن آيات بعد النظر فى الاختيار أن اختار صهيباً للصلاة بالناس ، فهو الإمام الذى لا تخشى له دعوة من تقديمه للصلاة ، ولا يأبى الناس أن يأتموا به وقد أمهم قبل ذاك . .

ومن آيات بعد النظر فى الاختيار وسبر الأغوار أنه اختار طلحة مع الستة وهو

غائب عن المدينة ، أو ما كان فى الخمسة المقيمين بالمدينة غنى وكفاية؟ . . أو ما كان لطلحة بديل من سائر الصحابة المقيمين؟ . . جواب ذلك عند التاريخ في نهاية عهد عثمان ، وعند التاريخ فى بداية عهد على ، وعند عمر قبل ذلك باثنتى عشرة سنة .

وآية الآيات دستوره فى اختيار الستة دون سائر الصحابة من الأنصار والمهاجرين . . .

أتراه اختارهم جزافا كما شاء؟ . . ذلك دستور لايلزم الناس جميعاً ولا حجة له عليهم فيه إذا سألوه عن فضل المختارين على غير المختارين؟ .

أتراه اختارهم من قبائل قريش ليكون كل منهم نائباً عن قبيل منها أو متكلما باسم بيت من بيوتات الرئاسة فيها؟ . . تلك هى العصبية يحييها فى أسوأ أوان لإحيائها ، حيث تراد الوحدة والغيرة على العقيدة ، ولا تراد العصبيات الجاهلية أو لا يراد الاعتراف بها إذا تيقظت على غير إرادة .

أتراه اختارهم من البدريين وذوى السوابق فى الجهاد؟ . . لقد كان من هؤلاء عند وفاة عمر نفر غير قليل . لو جمعهم كلهم لكثروا ولو فاضل بينهم لما وضحت لهم أسباب المفاضلة ، ومنهم من هو ذو فضل وليس بذى رئاسة تتبع ، ومنهم من ذوى الفضل والرئاسة من لو اجتمعوا لاختل ميزان الترجيح وبطل معنى الاختيار .

فلابد من اختيار ولابد من دستور يثاب إليه فى الاختيار ، وكان الدستور الذى ثاب إليه عمر حيث يعجل المرء عن الروية غاية فى الروية والدقة فى الموازنة بين جميع الوجوه .

كان دستوره أن أصحاب الشورى هم الذين ذكروا بأسمائهم فى خطبة النبى عليه السلام بعد حجة الوداع ، وهم الذين يتفق الناس على من يقع عليه الاختيار منهم فتكون له حجته على أصحاب الشورى وتكون لهم حجتهم عليه .

وعمر يعلم أن طلحة كان يطمح إلى استخلافه بعد أبى بكر ، وكلاهما من عشيرة واحدة وهى قبيلة تيم ، فقال له أبو بكر : «أما والله لو وليتك لجعلت أنفك فى قفاك ، ورفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذى يضعها» . .

وما كانت تخفى على عمر فضيلة فى واحد من الستة ولا نقيصة ، وما كان يغمط لهم فضلا ولا يغضى على نقص ، وأولهم عبد الرحمن بن عوف الذى أقامه

بينهم مقام الحكم الذى يرجح بين العدلين ، فقال له إن إيمانه يرجح بنصف إيمان الأمة ، وقال عنه لابن عمر : نعم المرء . . ذكرت رجلا صالحا إلا أنه ضعيف ، وهذا الأمر لايصلح له إلا الشديد من غير عنف ، اللين من غير ضعف ، الجواد من غير سرف ، الممسك من غير بخل . .

ورأيه فى الزبير أنه مؤمن الرضا كافر الغضب ، وقد صارحه برأيه فيه فقال له : «لعلها لو أفضت إليك ظللت يومك تلاطم بالبطحاء على مد من شعير» . .

ورأيه فى سعد أنه أهل لها . . فإن تولوه فهو أهل ، وإلا فليستعن به الوالى فإنى لم أعزله عن ضعف ولا خيانة ، وكان يقول : «إذا روى سعد حديثاً فلا تسألوا عنه غيره لصدقه وأمانته» .

وكان يظن مع هذا أنه لا يليها «إلا أحد هذين الرجلين : على وعثمان فإن ولى عثمان فرجل فيه لين ، وإن ولى على ففيه دعابة وأحرى به أن يحملهم على الحق» .

وقال لعثمان : «كأنى بك قد قلدتك قريش هذا الأمر لحبها إياك ، فحملت بنى معيط على رقاب الناس ، وآثرتهم بالفىء» وقال لعلى مثل ذلك عن بنى هاشم ولم يذكر الفىء ، وإذا صح ما جاء فى إحدى الروايات[1] أنه قال لعثمان بعد مقالته الأولى : «فسارت إليك عصابة من ذؤبان العرب فذبحوك على فراشك ذبحا» فإنها لمن نبوءاته التى جعلته من المحدَّثين ، أى من الذين يتحدث إليهم بلسان الغيب ، كما قال عنه النبى عليه السلام . .

ولا خوف عليهم من الناس إذا اتفقوا كما قال لهم حين دعاهم للمشاورة وانتخاب واحد منهم للخلافة ، فليس أسلم عاقبة ولا أصدق حجة من اتفاقهم على إسناد الخلافة إلى أحدهم . فإن اتفق أكثرهم فأبو طلحة مأمور بحسم الفتنة قبل أن تنجم والقضاء على المخالفة قبل أن يبرح مجلس الشورى . فإن لج الخلاف مع هذا وبعد هذا فلا حيلة فيه . .

(١) رواها الجاحظ وابن أبى الحديد مسندة إلى ابن عباس .

وقد روى الثقات حديث النبى عليه السلام حين عاد من حجة الوداع قبيل وفاته فقال : «أيها الناس إن أبا بكر لم يسؤنى قط فاعرفوا له ذلك ، يا أيها الناس إنى راض عن عمر وعلى وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن مالك وعبد الرحمن بن عوف والمهاجرين الأولين ، فاعرفوا لهم ذلك» . .

فحسب عمر أن يرتضى للمشاورة فى أمر الخلافة من رضى النبى عليه السلام عنهم قبيل وفاته ، وحسبه مع هذا أن يكون هؤلاء النفر الكرام المرضى عنهم هم ملتقى الآراء بين خاصة المسلمين وعامتهم ، فلا يسمون خليفة إلا كان واحداً من هؤلاء ، ولا يحاول أحد فى ذلك العصر أو فى عصرنا هذا أن يزيد عليهم علما من أعلام الإسلام يومئذ إلا اعترضه مانع أو كان مستنده إلى سبب غير جامع ، فقد كان العباس بن عبد المطلب حيا فى ذلك الحين فلم يدخل فى أصحاب الشورى ، وقال ابن جرير الطبرى فى تعليل ذلك : «أنه - أى عمر- إنما جعلها فى أهل السبق من البدريين والعباس لم يكن مهاجرا ولا سابقا ولا بدرياً . . . . . .» .

ولكن الواقع أن العباس لم يذكر فى خطبة الوداع ولم يكن من المرشحين للخلافة مع وجود على ، وهو نفسه قد تقدم لمبايعة على ثم أشار عليه ألا يدخل فى جماعة الشورى ، فليس فى استثنائه تعسف من عمر ، وإنما التعسف أن يختاره لسبب ولايختار معه كل من يشاركونه فى هذا السبب ، وذلك هو الاستثناء الذى لايغنى شيئاً ولا يطاع بسند شامل براء من التحكم والجزاف .

***

ولعلنا علمنا فيما علمناه وألممنا به آنفا من آراء المعقبين على خطة الصديق وخطة الفاروق ، أن بعضهم ود لو كان الفاروق قد نهج على منهاج سلفه فى اختيار خلفه ، وأنهم عابوا عليه أن يكل إلى الستة أن يتشاوروا فى انتخاب واحد منهم ، لأنهم تولوا هذه المهمة فداخل كلا منهم الأمل فى الخلافة والإيمان بصلاحه لولايتها ، فانفتح بينهم باب التنافس وتطرقت إليهم نوازع الشقاق فى هذا الباب .

ومعاوية بن أبى سفيان كان على رأس القائلين بهذا الرأى وهو نفسه حجة على نقيضه ، لأنه قد اشرأب إلى الخلافة وتصدى للمبايعة بها وليس هو من الستة ولا من كان يطمع فى إسنادها إليه بوصية من الفاروق لو اختار الفاروق أن يعهد بعده لخليفة يسميه باسمه ، وقد نادى معاوية بولاية العهد لابنه يزيد وبويع عليها

طوعا أو كرها لم يحسم بذلك خلافا بين المسلمين عامة ولا بين أمية أو أبناء بيت أبى سفيان . .

وما نحسب أن عمر كان يؤمن بترجيح واحد من الستة على الآخرين وإجماع المسلمين على مثل رأيه فيه ، وأنه قادر على رد المخالفين له إلى الإجماع إن كان من الناس من يخالفه قبل المبايعة ، وليس البحث فى هذا المقام عن فضل العلم أو فضل البأس والفروسية ، فربما قل الخلاف على صاحب الفضل فيهما بين أصحاب الشورى ورؤساء المهاجرين والأنصار كافة ، وإنما البحث فيمن يجمع الناس إلى حكمه وفضله ، وهو بحث لازم لا غنى عن المشاورة يومئذ فيه ، ولو استغنى عنه أحد لاستغنى عنه عمر ولم يبال إن كان يحكم برأيه فى ولاية العهد على يقين . . .

ولا ريب أنه حصر المرشحين بعده للخلافة ، فأحسن حصرهم ولم يدع واحدا منهم خارجاً من زمرتهم ، فهم مرشحون لها عند أنفسهم وعند أنصارهم قبل أن يندبهم للمشاورة فيها ، فإن صارت إلى واحد منهم باتفاقهم كان هذا ألزم لهم وأوجب لتحرجهم من الخروج على مَن ولى الأمر باختيارهم ، وكان أوجب لتحرجهم كذلك من الخروج على مشيئة عمر التى أملاها ورتب لها نتائجها .

كان ولى الأمر فى ذلك المجتمع الوليد كفؤاً لأمانة الخلافة إلى النفس الأخير من أنفاس حياته المباركة ، فأوصى وصيته المحكمة التى نظر فيها نظرته الشاملة ولم يدع فيها بقية لنظرة ثانية ، ولكن الوصايا مهما يبلغ من إحكامها وإلزامها لا تنفذ بغير منفذين يقدرون على تنفيذها ويصدقون النية فيه ، فلو لم يكن أصحاب الشورى وقائد الجند وإمام الصلاة فى الأيام الثلاثة أهلا لأمانتهم لما أغناهم حزم الخليفة الراحل شيئاً فى تلك المهمة المعجلة التى يوشك أن يفسدها كل خطأ فى القيام عليه وكل تأخير عن موعدها ، وقد أدى الخليفة واجبه وبقى واجب المنفذين الذين ائتمنهم على الأمة بعد حياته ، فمن حقهم على التاريخ أن يسجل لهم أداءهم لواجبهم وتصريفهم لأمانتهم على أتم الوجوه الميسرة لهم فى تلك المهمة الحرجة . . . وفى زمرتهم قبل غيرها بعض محرجاتها ، بل أعضل محرجاتها . .

تنافسوا بينهم ولاجرم . أقل من منصب الخلافة فى الدنيا والدين يتنافس عليه المتنافسون ، ومن المروءة أن يستشرف المرء إلى مقام الفاضل ويأبى لدينه ودنياه مقام

المفضول ، فإن لم يكن تنافسهم على مكانة عالية فهو تنافس يربأون به عن مظنة التخلف والقصور .

ثم ألهم أحدهم أول حل للمشكل تتبعه لا محالة سائر الحلول : واحد ينزع نفسه منها باختياره وينوب عن سائرهم فى التوفيق بين المختلفين .

سبقهم إلى هذا الحل عبد الرحمن بن عوف ، ولم يسبقهم إليه نزولا بقدره عن أقدارهم ، بل نزولا به عن قدر الصديق والفاروق ، فقد علم أن الرضى عن خليفة بعد هذين مطمع بعيد ، ولم يشأ أن ينزل بنفسه منزلا لا يُرضى له ولا يرتضيه . .

ولم يخطر له أن يخلع نفسه بادئ ذى بدء قبل أن يرى منهم من عساه يصنع مثل صنيعه ، فإن كان منهم من يخلع نفسه على أن يختار غيره فقد ضاقت بينهم شقة الخلاف ، وإن لم يكن ، فلينظر بعد ذلك فيما يلى خطوته الأولى من خطوات .

قال : «أيكم يخرج منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم؟» فلم يجبه أحد فقال : «فأنا أنخلع منها» ، ثم تقدم إلى الخطوة التالية فلم يخطئها ووصل منها إلى حصر الخلافة فى واحد من اثنين : على وعثمان .

لقى كلا منهما فأراه أنه يعلم حجته ودعواه ، قال لعلى : «تقول ياأبا الحسن إنى أحق من حضر بهذا الأمر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك فى الدين ولم تبعد فى نفسك ، ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر ، من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق به؟» قال : «عثمان» .

ولقى عثمان فقال : «إنك تقول : شيخ من بنى عبد مناف وصهر رسول الله وابن عمته ولى سابقة وفضل فأين يصرف هذا الأمر عنى؟ لكن لو لم تحضر ، فأى هؤلاء الرهط تراه أحق؟» فقال : «على»!

وتختلف الروايات فيمن اختاره الزبير وسعد ، ولكن الراجح منها أنهما ذكرا عثمان بشرط ولم يقطعا برأى فى إيثار على عليه . .

فلما انحصر الترجيح بين عثمان وعلى خرج يسأل من يلقاه من غير أصحاب الشورى فيذكر له بعضهم عثمان وبعضهم عليا ، ويزيد المختارون لعثمان على المختارين لعلى وهو أمر لا غرابة فيه مع المعهود من طبائع الناس وأنهم لا يجنحون

إلى العظمة النابغة جنوحهم إلى الطيبة والسلامة ، ولا ينفسون على الشيوخ ما ينفسونه على الفتيان والكهول . .

كل أولئك وأبو طلحة الأنصارى رئيس الجند ينذرهم ويقسم لهم «بالذى ذهب بنفس عمر» لايزيدتهم على الأيام الثلاثة ، ثم يجلس فى بيته فينظر ماذا يصنعون ، وينفذ الأمر فيمن خالف وأصر على الخلاف .

***

ولئن كان عمر موفقا فى اختيار كل لعمله لقد كان اختياره لأبى طلحة أوفق ما فى هذا التوفيق . إنه الرجل الذى آخى النبى عليه السلام بينه وبين أبى عبيدة بن الجراح أولى الناس فى رأى عمر بالخلافة لو عاش ، وهو البطل الذى ثبت فى وقعة أحد يوم انهزم أشجع الشجعان ، ولزم النبى فى ذلك اليوم المشهود يقف بينه وبين السهام والسيوف ويتطاول بصدره ليدفع عنه ضربات المشركين الذين عرفوه وتعمدوه ليصيبوا الدعوة فى مقتلها إذا أصابوه ، وشهد أبو طلحة وقعة حنين فبارز عشرين خصما وصرعهم وصاح صيحته التى كان عليه السلام يقول : «إنها فى الجيش خير من مائة رجل» . . ولم يكن يبالى الموت وهو فى سعة من دنياه ، ولم يكن يعرف غير الجد فيما يعمل أو يقول .

وقد أوفى بأمانته فى أيام الشورى فلم يدعهم حتى فرغوا من عملهم فى صبيحة اليوم الثالث ، وكان فيه فصل الخطاب . .

فى تلك الليلة أتى عبد الرحمن بن عوف منزل المسور بن مخرمة فأيقظه وأرسله يدعو الزبير وسعدا ، ثم بدأ بالزبير فقال له : «خل بنى عبد مناف وهذا الأمر» قال الزبير : «نصيبى لعلى» ثم قال لسعد : «اجعل نصيبك لى فنحن كلالة» أى أبناء عم من بعيد - وكلاهما من بنى زهرة . فقال سعد : «إن اخترت نفسك فنعم ، وإن اخترت عثمان فعلى أحب إلى» ثم قال : «أيها الرجل بايع لنفسك وأرحنا وارفع رؤوسنا» فاعتذر عبد الرحمن لأنه خلع نفسه منها ، وأعاد عليه مقالته : أنه لايقوم مقام أبى بكر وعمر أحد بعدهما ويرضى الناس عنه . . .

ثم كان على وعثمان آخر من دعاهم فى تلك الليلة : دعا عليا فناجاه طويلا ، ثم دعا عثمان فناجاه إلى صلاة الصبح ، ويظن أنه سأل كلا منهما عما ينويه إذا ولى الخلافة ، وعن وصية عمر بعمال الولايات أن يتركوا فى ولاياتهم عاما بعد وفاته ثم

يصنع الخليفة ما بدا له من إقرار أو عزل على حسب أحوالهم وأحوال ولاياتهم ، وأنه سأل كلا منهما عن سياسته عامة وخاصة فى شئون الأغنياء والأرزاق والأجناد والسرايا والمغازى وسائر ما يتولاه من أمور الخلافة ، ولا يقطع أحد بما دار بين عبد الرحمن وبين كل من على وعثمان على حدة ، وأغلب الظن أن الذين ذكروا شيئاً من هذا إنما ذكروه مستنبطين ولم يذكروه نقلا عن عبد الرحمن أو عن على وعثمان . . . . قال عبد الله بن عمر : من أخبرك أنه يعلم ما كلم به عبد الرحمن بن عوف عليا وعثمان فقد قال بغير علم .

وحانت صلاة الصبح فصلوا فى المسجد ، وجمع عبد الرحمن رهط الشورى وبعث إلى من كان بالمدينة من أهل السابقة والفضل من الأنصار وأمراء الأجناد فاجتمعوا حتى التج المسجد بأهله ، وقام عبد الرحمن فقال : «أيها الناس! . . إن أهل الأمصار قد أحبوا أن يلحقوا بأمصارهم وقد علموا من أميرهم» . فصاح به سعيد بن زيد أحد ذوى السابقة الأولى فى الجهاد : «إنا نراك أهلا لها» . قال عبد الرحمن : «أشيروا على بغير هذا» . قال عمار بن ياسر . «إن أردت ألا يختلف المسلمون فبايع عليا» وقال المقداد بن الأسود : «صدق عمار . إن بايعت عليا . قلنا : سمعنا وأطعنا» . وإذا بعبد الله بن أبى سرح يناديه : «تبايع عثمان فلا تختلف قريش» ويثنى عبد الله بن أبى ربيعة فيقول : «صدق . . . . إن بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا» فتنابز عمار وابن أبى سرح ، واختلط القول بين بنى هاشم وبنى أمية ، فعاد عمار يقول : «أيها الناس! . . إن الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه فأنى تصرفون هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم؟» ويبادره رجل من آل مخزوم شاتما : «لقد عدوت طورك يابن سمية؟ . . وما أنت وتأمير قريش لأنفسها؟» .

وضاق سعد بن أبى وقاص صدرا بهذه المنابزة وهذا الصخب فصاح بعبد الرحمن : «ياعبد الرحمن افرغ قبل أن يفتتن الناس» .

ولا ندرى هل تعمد عبد الرحمن هذا التمهل قبل إعلان البيعة أو أنه سكت حين اعترضه المعترضون باللجاج والمنابزة . فالغالب من تصرفه فى أمر الشورى أنه كان يخطو الخطوة ثم يتبعها مابعدها بحساب وأناة ، وآخر ما كان من ذلك أنه أرجأ محادثة الاثنين اللذين انحصرت فيهما الأقوال حتى كانا آخر من تحدث إليه ، وأنه لما دعاهما دعا عليا ثم ثنى بعثمان . .

فإن كان قد تمهل فى المسجد على عمد فقد أحسن الروية ، لأنه سكت حتى

أيقن الحاضرون بما رأوه وما سمعوه أن الفتنة موشكة أن تكشر عن نابها إن لم ينته الناس من مبايعة خليفتهم تلك الساعة! . . هذا يذكر اتفاق قريش ، وهذا يشترط ، وهذا يقابل شرطه بمثله ، وهذا يتكلم عن بنى هاشم ، وهذا يتكلم عن بنى أمية . فلما صاح سعد صيحته بعبد الرحمن افرغ ياعبد الرحمن قبل أن يفتتن الناس كان صوته فى تلك اللحظة كأنما هو صوت المسجد كله يتكلم بلسان واحد . .

وأسرع عبد الرحمن فقال : «إنى قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا» ودعا عليا وقال : «عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده» . فقال : «أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى مع اجتهاد رأيى» ودعا عثمان فقال له كذلك : «عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده» . فقال : «نعم» .

فرفع عبد الرحمن رأسه إلى سقف المسجد ويده فى يد عثمان فقال : «اللهم اسمع واشهد . . أنى قد جعلت ما فى رقبتى من ذلك فى رقبة عثمان» ثم بايعه بالخلافة ، وبايعه بعده المهاجرون والأنصار . .

وجاء فى بعض أخبار ذلك اليوم أن عبد الرحمن بن عوف لما بايعه ازدحم الناس عليه يبايعونه حتى غشوه عند المنبر فقعد عبد الرحمن مقعد النبى صلوات الله عليه وأقعد عثمان على الدرجة الثانية فجعل الناس يبايعونه ، وأبطأ على فقال عبد الرحمن : ﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فرجع على يشق الناس حتى بايع وهو يقول : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ . . . .

وقد بايع رهط الشورى عثمان فى المسجد ما عدا طلحة فإنه كان غائباً فقدم بعد ذلك وعلم بالبيعة فسأل : «أكل قريش راض به؟» ثم قال له عثمان حين ذهب إليه : «أنت على رأس أمرك . . . إن أبيت رددتها» قال طلحة : «أتردها؟» قال : «نعم» . . . فسأله : «أكل الناس بايعوك؟» قال : «نعم» قال : «قد رضيت ، لا أرغب عما قد اجتمعوا عليه» . .

ولا نلتفت هنا إلى زوائد الأقاويل عما خدع عليا وعمن خدعه . فإن ما أجملناه هنا من شتى الروايات هو الأشبه والأمثل بهم أجمعين .

إن تقرير هذه الحالة النفسية أهم من إحصاء مئات الحوادث والأقوال التى انحدرت إلينا من تلك الفترة ، لأن الحوادث والأقوال لا تفهم بغير فهم تلك الحالة النفسية ، ولعل تلك الحالة فى كثير من الأحيان هى مبعث الحوادث وأقوال القائلين فيها ، فما كان أحد يعيب سياسة عثمان مخلصا أو غير مخلص إلا كن الحذر من تبديل السنن ونقض السوابق حجة له يسوقها فى خطابه للخليفة أو خطابه للخاصة والعامة من رعيته ، وأصبح حضور هذا الحذر فى الأذهان من دواعى المبالغة فى تعظيم المخالفات وخلقها من غير شئ على نية حسنة عند بعضهم وعلى نية سيئة عند الأكثرين ، لأنها نغمة العصر ألتى تفتح الأذان ، وتتأهب الأذان لاستماعها فى كل مكان . .

وأهم من ذلك أن عثمان على رأس المسلمين قد ساوره ذلك الشعور وداخلته تلك الحالة النفسية وجثمت فى سريرته حتى تمكن منه التسليم والاستسلام لما هو كائن لا محالة ، فكان يقول لحدثيه كما يقول فى خطبه :إن ما تبتلى به هذه الأمة قدر واقع لا يدفع ، وأن فتنة الدنيا طغت على النفوس طغيانها الذى لاتجدى فيه الحيلة أو المحاولة . وذلك كله مما نلمسه فى استسلامه أخر أيامه وتركه المحاولة أو عدوله عنها بعد المضى فيها ، ونلمسه كذلك فى شكه واسترابته فى صدق العاملين وتعويله من أجل ذلك على أقربائه وخاصة ذويه عسى أن يصدقوه فى رعاية السنن والمواثيق . .

وتظهر تلك الحالة النفسية من خطبه الأولى كما تظهر من خطبه الأخيرة ، فلما بايعه أصحاب الشورى خرج فيهم وهو أشدهم كآبة حتى أتى منبر رسول الله وقام يخطب الناس فارتج عليه ، وجاء فى كلام من روى خبر الارتجاج عليه أنه قال يومئذ : «أيها الناس . . إن أول مَركب صعبٌ ، وإن بعد اليوم أياما ، وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها ، وما كنا خطباء وسيعلمنا الله . . . . .»

مقام أدل من المقال ، يدل على كثير . . .

وأول ما يدل عليه أنه لا تدبير ثمة ولا تحضير ، فلو كان عثمان على علم باختياره للخلافة لما أعياه أن يعد لهذا المقام كفايته من المقال البليغ ، ولكنها قد جاءته وهو لا يستبعد أن تفوته ولايزال يخشى فى ذات نفسه أمام الله أن يتعجلها بالتحضير والتدبير ، وأن يطوى فى سره منها ما لم يكن له أن يبديه فى العلانية . .

ثم خطب فاتفقت الأقوال أو كادت على نصوص خطبه الأولى ، وكان مدارها على فتنة الدنيا والوعد باتباع السنن واجتناب البدع وتهدئة النفوس من قبل ما تخافه ، ولا تخاف خطراً أكبر من خطره . . .

قال فى خطبته الأولى : «إنكم فى دار قلعة ، وفى بقية أعمار ، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه . فلقد أتيتم ، صبحتم أو مسيتم ، ألا وإن الدنيا طويت على الغرور ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . اعتبروا بمن مضى ، ثم جدوا ولا تغفلوا فإنه لايغفل عنكم . أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بها طويلا . ألم تلفظهم؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها . . .» .

وقال فى أوائل خطبة : « . . . . . إنى قد حملت وقد قبلت ، ألا وإنى متبع ولست بمبتدع . ألا وإن لكم على بعد كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ ثلاثا : اتباع من كان قبلى فيما اجتمعتم عليه وسننتم ، وسن سنة أهل الخير فيما لم تسنوا عن ملأ ، والكف عنكم إلا فيما استوجبتم . ألا وإن الدنيا خضرة قد شهيت إلى الناس ومال إليها كثير منهم ، فلا تركنوا إلى الدنيا ولا تثقوا بها فإنها ليست بثقة ، واعلموا أنها غير تاركة إلا من تركها . . .» .

إن أقرب الأخبار إلى الصدق ما تهم بأن تنفيه فيحمى صدقه بأية من دواعيه قبل النفس وقبل الواقع ، وكل ما كان خليقاً أن يحدث عند مبايعة الخليفة الثالث قد حدث على وجهه الذى يطابق الواقع والمتوقع ، وفى هذه الخطبة مطابقة لما يتطلبه الموقف من المعدات والعهود ، وفيها زيادة وعد «بالكف عن الناس إلا فيما استوجبوه» . . . . ولعلها الزيادة التى أتت فى أوانها بعد ما تململ منها القوم من صلابة عمر ومنعه إياهم أن ينساحوا فى الدنيا خوفا عليهم منها وخوفاً منهم عليها . . .

أما المكائد التى أبدعتها أوهام المتوهمين فقد يبطلها قبل كل شىء أنها ليست بمكائد تعمل عملا ينفع من يكيدها . .

ومن هذه المكائد ما يخيل إلينا أن مخترعيها وضعوا حين وضعوا «قصة مسرحية» يعطون كل بطل من أبطالها دوره فى الكلام ودوره فى الدخول والانصراف ، ومنها ما يخيل إلينا أن أصحاب الشورى كانوا عصبة محضرة مستعدة على مصارحة بينها لحرمان هذا واجتباء ذاك ، وإحدى هذه الخيالات خيالة

المستشرقين الذين توهموا أن أصحاب الشورى خصوا عثمان باختيارهم لأنه شيخ يدلف إلى منيته فكلهم يطمع فيها بعد موته ، أفحدث حقاً أنهم خصوه وعرفوا يقينا قبل أن يبايعه عبد الرحمن من سيكون مختاره ومجتباه؟

وفى مكيدة أخرى من هذه المكائد التى «يمسرحها» المخترعون لها أن اختيار عثمان قرر الملك لبنى أمية على نية مبيتة ، فهل هى مسرحية يكتبها التاريخ نسخة بعد نسخة ، ويريد هنا غير مايريد هناك؟ . . . . .

ولماذا تطمع القبائل أن تتداول الخلافة بعد خليفة من بنى أمية وهم أقدر على احتجانها وأرغب فى الاستئثار بها بعد مآلها إليهم فى صدر الإسلام؟

كل هاتيك حيل مسرحية توضع لها أدوارها وأعمالها حسب منهاج التأليف . وأولاها بالشك فيها ما لاح عليه الإحكام والتوفيق بين الأدوار والأعمال ، وأولاها بالقبول ماليس وراءه تحضير ينتظم كما ينتظم التحضير فى المسرحيات : شىء يراد وشىء لا يراد ويعالجه فيستطيعه تارة ويعى به تارة فينقلب على غير ما تعمده وانتحاه .

وعلى هذا النحو المطبوع آلت الخلافة إلى عثمان . .

الخلافة

بين هذه النذر قامت أصعب خلافة نولاها خليفة قط فى صدر الإسلام ، وقد كانت ثورة المرتدين فى أول خلافة الصديق محنة شديدة نهض لها المسلمون جميعاً متساندين متآزرين ، فابتلى عثمان فى أول خلافته بما يشبه تلك الثورة ويزيد عليه : الخلاف في الداخل والتغير فى الدواعى النفسية ، وهو أخطر المصاعب جميعاً فى خلافة عثمان . .

كانت هيبة عمر تملأ الجزيزة العربية وما حولها ، وكان أصحاب الدولتين الكبيرتين من الروم والفرس أهيب له من رعيته في الجزيرة ، لأن هذه الرعية تعتصم من هيبته بحق يعرفه لها وتعرفه لنفسها ، ولم تكن للروم والفرس عصمة من هيبته إلا بالحذر والدسيسة ، ورستم بطل الفرس المشهور الذى كاد أن يصبح من أبطال الأساطير هو القائل عن عمر : «أحرق كبدى عمر إنه يكلم الكلاب فتفهم عنه!» . يعنى أنه جعل من عرب البادية الذين ازدراهم الفرس أبطالا كالأسود بفضل ما يسدى إليهم ويستمعون إليه من نصيحته والاقتداء بسيرته . وقد خطر للمؤرخين في صدر الإسلام أن الهرمزان كان من المتآمرين مع أبى لؤلؤة على قتل عمر ، وهو خاطر قريب إلى الذهن ولو لم يعتمد فيه المؤرخون على غير القرائن التى شهد بها يومئذ شهود الفاجعة قبل وقوعها ، ولكننا نحسب أن المؤامرة أكبر جدًا من ظواهرها التى تحصرها فى أبى لؤلؤة والهرمزان ، وأن تدبيرها فى معسكرات فارس وبلاط يزدجرد وحشيته أقرب إلى الخاطر وأدنى إلى المنظور فى مجمل الأحوال . .

فما هو إلا أن ذاع فى ساحات المشرق والمغرب مقتل عمر حتى تلاحقت الثورات والفتن كأنما كانت على موعد ، وثرد من قبائل الفرس والترك والروم من كان قد أذعن وتعاقد مع قادة الحرب على الصلح والطاعة ، ونقضت دولة الروم صلحا فأغارت على الإسكندرية برا وبحرا وأرسلت أساطيلها إلى شواطئ فلسطين ، وأطلقت في الميادين خفية من يبث فيها الوعد والوعيد ويغرى المطيع بالعصيان ، وأحصى المؤرخون البيزنطيون عدة السفن والجيوش التى اشتركت فى حركات الثورة والانتقاض فقال بعضهم إنها جاوزت خمسمائة سفينة ومائة ألف مقاتل ، وسرعان ما تسايرت الأنباء بهذه الزحوف بين الخزر والأرمن ومن وراءهم من الشعوب

الأسيوية ، فهبوا يتعللون بالذرائع لنقض الصلح ، أو ينقضونه بغير ذريعة وينتهزون الفرصة التى علموا أنها لا تسنح مرة أخرى إذا استكانوا للطاعة المسالمة . .

لقد كانت محنة كمحنة الردة أو أكبر منها فى اتساع ميادينها وتباعد أطرافها . .

وكان عثمان كفؤا لها بالعزم والرأى والسرعة فى تصريف الأمور وتسيير النجدات وإسناد كل عمل إلى من يحسنه ويسد فيه أحسن سداد . .

ولقد درج العاذرون واللائمون فى تاريخ عثمان على التسليم بضعفه كأنه حالة لاتفارقه فى جميع أعماله ، أو كأنه حالة لم تفارقه قط فى عمل مما تولاه . .

فالذين آمنوا منه بحسن القصد ، كانت معذرتهم له بالضعف واللين أسبق معاذيرهم إلى ألسنتهم حيث يوفقون بين خطئه وحسن قصده ، والذين أفرطوا فى اللوم جعلوا من ذلك الضعف خطلا فى الرأى قد يغطى على حسن النية لو افترضوه وسلموه . وهؤلاء يستغربون أن يقال إنه كان كفؤا لتلك المحنة بعزيمته وأصالة رأيه ، ويخيل إليهم أن كلمة «الضعف» تلغى كل قوة وتبطل كل عزيمة ، أو ينسون أن الضعفاء لايتساوون ، وأن الضعف لايلازمهم فى كل ما يعملون ، وأن الضعف كالمرض تتفاوت فيه مناعة الأبدان ومناعة النفوس ، فقد يعدى القوى الركين وإلى جانبه النحيل الهزيل لا تسرى إليه عدواه ، وقد يكون القوى فى حالات أضعف من الضعيف فى حالات ، وهذا مع التسليم بضعف عثمان على العلات ، وهو قول لايقبل على إطلاقه ، إذ لا نرى من علامات ضعفه إلا ما يظهر فيه الضعف بالنسبة إلى موقف من المواقف قد يحار فيه الأقوياء كما يعيى به الضعفاء . .

فلا تنس أن عثمان قد ولى أعمالا ناجحة فى الجاهلية والإسلام ، وأن من هذه الأعمال قوافل تترحل فى الصيف والشتاء ، وتوافق مطالب اليمن فى الجنوب والشام فى الشمال ، وأنه استطاع أن يصرف هذه القوافل ويوائم تلك المطالب وهو مقيم فى مكة أو المدينة ، وأنه تعود أن يستشار فيما يحضره ويغيب عنه ، وأنه تعود كذلك أن يعرف مشورة غيره فى مثل عمله ، وأن يعرف أخبار من تقدمه ومن عاصره من نظرائه ، وأنه بعد الإسلام قد لازم ولاة الأمر فى السياسة والحرب من عهد النبى عليه السلام إلى عهد الفاروق ، وشاركهم فى كثير ، وسمع أوامرهم وحضر مشاوراتهم فى كثير . . .

فلا تكونن كلمة الضعف حاضرة فى الذهن كلما حضرته حادثة من حوادث

سيرته أو آية من آيات عزمه وتدبيره ، وليكن للضعف محله فلا يشغل كل محل فى معارض هذا التاريخ العجاب . . .

إن علاج عثمان لمشكلات الدولة «الخارجية» التى فاجأته بعد ولايته قد كان أحسن علاج يتولاه خليفة فى تلك الآونة : عزم وسداد وسرعة ، مع الحيطة والأناة والرفق فى سياسة الأولياء والخصوم . . .

ولا شك أن الخليفة كان معانا على عمله ، ولم يكن منفردا بعبئه فى تلك المحنة الجائحة : كان معانا عليه بحمية الجند وكفاية القادة ، وكانت حمية الدين التى حفزت دعاة الإسلام من نصر إلى نصر ومن عزمة إلى عزمة ، وصحبتهم من بدر إلى القادسية وتبوك وبابليون ، صامدة على سمتها كأقوى وأقوم ما كانت فى يوم من أيامها ، بل لعلها فى حروب الفرس والروم كانت أقوى وأقوم من حروبها فى الجزيرة العربية . إذ كانت أنفة العربى أن ينهزم أمام المتعجرفين عليه من الأعاجم كفيلة أن تنفث فى قلبه الغضبة القوية التى لا تثيرها حرب العربى للعربى والشبيه بالشبيه . .

كان حبيب بن مسلمة الفهرى يقاتل الروم فى ميادين سورية وفلسطين ، فاستعان بمدد من الجزيرة فوصل إليه ، واستعان بمدد من الكوفة فأبطأ عنه ، فلما أقبلت الروم قبل وصول المدد وهم لا يتوقعون القتال مع قلة الجند فى معسكر العرب أتاهم حبيب من حيث لم يتوقعوا وبيتهم بليل . فانتصر وانهزموا . .

وإن الدهشة من هذه الجرأة لتغمرها حتى لتكاد تمحوها دهشة أخرى من دهشاتها التى لا عداد لها فى كل وقعة من وقعاتها : كانت أم عبد الله امرأة حبيب معه وهو ينوى الهجمة بليل قبل أن يسفر نور الصبح ويأتى المدد المرتقب ، فسألته : أين الموعد؟ قال : سرادق «الموريان» أو الجنة فوجدها عند السرادق قد سبقته إليه . .

وقبل هذا أُعين الصديق والفاروق بحمية الأجناد وكفاية القواد ، ولكن أعباء الجهاد فى أوائل أيام عثمان كانت أشق وأكبر وأحوج إلى التوجيه الناجز والتصريف الذى لا يغنى الإجمال فيه عن التفصيل ، على حسب الأطوار المتجددة والطوارئ المتقلبة ، لامتداد خطوط القتال وتعدد الفتن وتباعد المسافات بين البلدان وتكاثر العناصر والأجناس فى جيوش المسلمين ، فقام الخليفة الشيخ بأعبائه الجسام على أحسن ما يقام بها فى تلك المحنة الجائحة ، وكان له ولاشك أكبر الفضل فى تثبيت مهابة الدولة الجديدة بعد ما أصابها من الوهن والتخلخل عند مقتل عمر ، فوقر فى

أخلاد الأمم المحيطة بها أنهم ينازلون قوما لايقدح فى قوتهم موت خليفة أو تبديل قائد ، وأنهم منتصرون مستميتون فى سبيل النصر على اختلاف القادة والرؤساء ، فقتل بعد هذه التجربة عثمان ، ثم قتل على ، ثم مات معاوية ثم مات يزيد وتخلى معاوية الثانى عن الملك وانقسم المسلمون على أنفسهم ولم تقم للثورة عليهم قائمة فى بلاد الروم أو بلاد الفرس إلا ما كان من شغب متفرق على غير وجهة ، يَعْرو الدول من داخلها ومن خارجها بلا انقطاع ولا يخاف منه على دعائمها وأركانها . .

***

ولم يقنع عثمان بتسكين الثورات حيث يكفى فيها التسكين أو قمعها حيث تحتاج إلى القمع فى بلاد الطغاة والمتجبرين ، فصالح من صالح وحارب من حارب ثم أمر قواده بمجاوزة البلاد التى تشبت فيها الثورات إلى ما وراءها منعا لارتداد الهاربين إليها وانبعاث الفتن والدسائس من قبلها ، فتقدمت جنوده شرقا إلى حدود الهند والصين ، وشمالا إلى ما وراء بحر الخزر ، وغرباً إلى أبواب القسطنطينية وتخوم الأندلس ، وجنوباً إلى السودان وجوانب الحبشة ، ولم يؤخذ عليه قط وناء فى إنفاذ نجدة أو تسيير مدد أو تدارك خطر فى أوانه من أقصى تلك البقاع إلى أقصاها .

وعرضت له مسألة عسيرة من المسائل التى استطاع الفاروق إرجاءها ولم يكن ثمة بد من عودتها فى أوانها . .

عرضت له غزوة قبرص ورودس وجزر بحر الروم ، وإعداد العدة لدفع الغارات البحرية عن شواطئ مصر والشام والقيروان ، فكانت بحق مسألة - بل مشكلة - من المشكلات التى لم تستحكم قبل أيامه ولم تتطلب الحل السريع من ولىٍّ لأمر المسلمين فى الجزيرة العربية ، أو فى البقاع التى انتهت اليها الفتوح . .

وكان من سياسة عمر ألا يجعل بينه وبين جيش من المجاهدين بحرا ولا جسرا ولا قنطرة ، وأن يجنبهم ركوب البحر ما استطاع ، وكان معاوية يلح عليه فى غزو الروم بحرا ويهون عليه خطب هذه الغزوات ولا يفتأ يحضه على ذلك ويقول فيما قاله حضّاً عليه : «إن قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم وصياح دجاجهم» يعنى جزيرة أرواد . .

فكتب عمر إلى عمرو بن العاص يسأله أن يصف له البحر وراكبه ويقول له : «إن نفسى تنازعنى إليه» . .

فكتب إليه : «إنى رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء . إن ركد خرق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، وهم فيه دروع على عود ، إن مال غرق وإن نجا برق . .» إلى آخر ما هول به عليه ، فأقسم عمر لا يحملن عليه مسلما أبدا ، ورضى من ملك الروم بترك القتال ، ثم زاد ملك الروم فكاتبه وقاربه وبادله الهدايا وأرسل مع البريد هدية من الملكة إلى السيدة أم كلثوم زوجة عمر تحتوى فيما احتوته عقدا فاخراً يقوم بأضعاف هدية الطيب التى أرسلتها إليها أم كلثوم . فباع العقد وأودعه خزانة بيت المال ، وكتب إلى معاوية يحذره من القتال وينذره أن يصيبه منه ما أصاب العلاء الحضرمى إذا هو أقدم عليه بغير إذنه .

***

أما قصة العلاء هذه فقد كان لها أثرها الذى لم ينسه عمر ولم يزل عالقاً بذهنه يعاوده كلما عاوده بذكر البحر وغزواته ، وخلاصتها أن العلاء الحضرمى والى البحرين كانت بينه وبين سعد بن أبى وقاص منافسة فى الجهاد ، فبرز اسم العلاء فى حروب الردة ، ثم غلبه سعد فضلا وهمة فى وقعة القادسية «وأزاح الأكاسرة عن الدار وأخذ حدود ما يلى السواد» . . قال ابن الأثير : «فأراد العلاء أن يصنع فى الفرس شيئاً . . وقد كان عمر نهاه عن الغزو فى البحر فعبرت الجنود من البحرين إلى فارس ، فخرجوا إلى إصطخر وبإزائهم أهل فارس ، وعليهم الهربذ ، فحالت الفرس بين المسلمين وبين سفنهم . . . واقتتلوا قتالا شديداً بمكان يدعى طاوس . وقتل من أهل فارس مقتلة عظيمة ، ثم خرج المسلمون يريدون البصرة ولم يجدوا إلى الرجوع فى البحر سبيلا ، وأخذت الفرس منهم طرقهم فعسكروا وامتنعوا . . .) .

قال ابن الأثير الذى تلخص منه قصة هذه الغزوة : «ولما بلغ عمر صنيع العلاء أرسل اليه عتبة بن غزوان يأمره بإنفاذ جند كثيف إلى المسلمين بفارس قبل أن يهلكوا . . . وأمر العلاء بأثقل الأشياء عليه وهو تأمير سعد عليه ، فشخص العلاء إلى سعد بمن معه» ولم يكن أشد على نفسه من هذا العقاب الأليم ، وما كان ليعطيه لولا إيمانه وتقواه وأنه استحقه بمخالفته من لاينجو من عقابه مخالف كائناً من كان . . .

وبقيت عبرة هذه الغزوة لا تنسى ولا تغيب عن فكر عثمان بعد عمر ، وأوشكت مصائبها جميعاً أن تعزى إلى البحر وإلى كل ماء من بحار فارس والروم ، ثم عادت المسألة – أو المشكلة – إلى عثمان فوجب أن يفصل فيها برأيه وهو على ذكر من سياسة عمر وسياسة أبي بكر من قبله : لايحملن أحدا من المسلمين على ركوب البحر ، أو على ركوب الغرر – فى قتال . . .

ونظرة عثمان فى هذه المشكلة من أدل أعماله على نصيبه من الاجتهاد ومن الاقتداء ، ومن أدل الأمور على إقدامه حيث يحجم من هم أشهر منه بالإقدام . .

إن المشكلة هنا قد تغيرت ولم يبق بينها وبين مجازفة العلاء الحضرمى غير شبه قليل . .

تغير من ركوب البحر أنه أصبح اليوم ضرورة لامحيد عنها ، بعد إذ كان مجازفة لا حاجة إليها .

فقد أصبحت قبرص ورودس وجزر الشاطئ القريب ملتقى تتربص فيه الأساطيل المتجمعة من أقطار دولة الروم ، وأصبح امتناع السفن المغيرة بها خطراً على الشام وفلسطين ومصر والقيروان ، لا يؤمن على غرة ، ولا على استعداد وأهبة ، ثم كان ما كان من اختيار المسلمين ركوب البحار اضطرارا وتجربتهم للسفن كبارها وصغارها ، فذللوا المركب العصى الذى طالما تجنبوه ، وتغيرت المشكلة ولم يبق بينها وبين مجازفة البحرين غير شبه قليل . .

وعلى هذا الشبه القليل بين الأمس واليوم لم تزل شبهة التغرير بالناس قائمة لا تدفع إذا خيف الضرر ووقع الخطر وقيل إن ولاة الأمر لم يحذروا ما كان حذرهم منه عمر وأوجب الحذر منه على أتباعه وتابعيه .

وعسير أن يمنع غزو البحر ، وعسير مثله أن يباح ، فخرج عثمان من العسيرين خير مخرج ، وكتب إلى معاوية يأذن له ويشترط عليه «ألا ينتخب الناس ولايقترع بينهم ، وأن يخيرهم فمن اختار الغزو طائعاً حمله وأعانه . . .»

وعلى هذا الشرط غزا عبد الله بن قيس الجاسى قائد الأسطول خمسين غزاة «بين شاتية وصائفة فى البر والبحر ولم يغرق أحد ولم ينكب . . . .»

واتفقوا مع أهل الجزر على شروط تحميهم الغرة وتبيحهم أن ينزلوا بها ليمنعوا نزول العدو بأرضها واحتماء الأساطيل المغيرة بمرافئها ، ورتبوا الحملة عليها من مصر

والشام تأميناً للطريق من شرقها وغربها وجنوبها ، فأمنوا البحر وأمنوه لمن يسلكونه من المسلمين والمسالمين ، ولو أنهم تركوا البحر وشأنه لاستعصى عليهم بعد ذلك أن يدفعوا غارة الروم من قبل البحر كما دفعوها ، وأن يسيطروا على سبل الملاحة خلال سنوات معدودات كما سيطروا عليها .

وكانت هذه الهمة من عثمان فى علاج الأخطار الخارجية حلا نافعاً فى شئون الدولة الداخلية إلى حين ، لأن مدافعة الأخطار من الخارج شغلت الناس زمنا عن شواغل السلم والدعة التى تفرقهم وتفرغ أوقاتهم للنقاش والجدال فيما يعنيهم أو لا يعنيهم ، ولكن مواقع الجهاد اختلفت واختلف عدد المجاهدين فيها ونصيب كل مجاهد من غنائمها وأنفالها ومن رواتبها وأعطيتها . . .

وبدأ ذلك فى عهد عمر ، كما تبدأ مشكلات الميادين التى لا تستقر على قرار ، بين الكر والفر ، والإقامة والترحال ، وتعاقب الأمراء والقادة فى ميادين القتال ، فما حدث فى عهد عمر من ذلك أن أهل البصرة شكوا عجز خراجهم على كثرتهم وأن أناساً يشاركونهم فيه ممن أقاموا معهم بعد تمام الفتح ، فاختصم أهل البصرة وأهل الكوفة «وادعى أهل البصرة قرى افتتحها أبو موسى دون أصبهان ، أيام أمد به عمر ابن الخطاب أهل الكوفة ، فقال لهم أهل الكوفة : أتيتمونا مددا وقد افتتحنا البلاد . فأنشبناكم فى المغانم ، والذمة ذمتنا ، والأرض أرضنا . قال عمر : صدقوا . فقال أهل الأيام والقادسية ممن سكن البصرة : فلتعطونا نصيبا مما نحن شركاؤكم فيه من سوادهم وحواشيهم . فأعطاهم عمر مائة دينار برضا أهل الكوفة ، أخذها من شهد الأيام والقادسية . .» . .

وقد عزل عمر والى الكوفة عمار بن ياسر واستعمل عليها أبا موسى ، وكان أهل الكوفة يشكون عمارا ويقولون لعمر إنه لا يدرى علام استعملته ، فسألهم : ومن تريدون؟ . . قالوا : نريد أبا موسى ، فولاه عليهم ، فأقام عليهم سنة ، ثم باع غلامه العلف فشكوه فعزله وصرفه إلى البصرة . .

ولبث عمر مهموما مغموما بأمر هذه الشكايات ، حتى اضطجع يوما بجانب المسجد وهو يفكر فيها واستيقظ وهو مكروب بادى الأسى ، فقال له المغيرة بن شعبة : ما فعلت هذا ياأمير المؤمنين إلا من عظيم ، فقال : وأى شىء أعظم من مائة ألف لايرضون عن أمير ولا يرضى عنهم أمير؟ . . وأتاه أصحابه وهو بتلك الحال من الغم والأسى فسألوه : ما شأنك؟ . . فقال : إن أهل الكوفة قد عضلونى .

واستشارهم فيمن يوليه ، فأشاروا عليه بتولية المغيرة ، فولاه وأقام واليا عليها أكثر من سنتين إلى مقتل عمر ، وكان من رأى المغيرة الذى استمع إليه عمر أن الوالى القوى المسدد أصلح من الضعيف التقى «أما الضعيف المسلم فإن إسلامه لنفسه وضعفه عليك وعلى المسلمين ، وأما القوى المسدد فإن سداده وقوته لك وللمسلمين» .

ولم ينحسم هذا الخلاف فى عهد عمر ولا فى عهد عثمان ولا فى عهد على إلى أيام الدولة الأموية ، فكان معاوية يأخذ لجند قنسرين بنصيب من فتوح العراق وأذربيجان والموصل والباب ، وهكذا كان يحدث فى الميادين عامة بين من ظفروا فيها ثم تحولو عنها إلى غيرها ، وبين من أقاموا فيها ولم يشهدوا فتوحا ، ولا ظلم ولا غبن فى التقسيم والتقدير ، وإنما هى جرائر السعة واشتباك النظم والولايات وكثرة الأمداد التى تنتقل من ميدان إلى ميدان ومن ولاية إلى ولاية ، ولنا أن نقول إنها جرائر الاختلاف من نظام الخلافة إلى نظام الملك ، والدولة التى تواجهها كل يوم قضية من قضايا المعيشة مقرونة بقضايا الجهاد ، أو قضية بين حالة عاجلة وحالة باقية على مدى الأيام ، ولا ينفصل فيها نظام المعيشة ، ونظام الجهاد كل الانفصال .

وليس بالنادر بين هذه القلاقل أن يخف الجيش لنجدة جيش آخر فلا يصل إلى المكان المحصور أو المهدد إلا بعد الاستغناء عن نجدته ، وليس بالنادر أن تتنافس الجيوش بالقادة والسمعة والسابقة فينفس بعضها على بعض أن ينحاز لقيادته وأن يكون أميره تابعاً لأمير آخر لم يعرفه قبل ذلك . . .

ومما اتفق من ذلك أيام عثمان أن حبيب بن مسلمة الذى سبقت الإشارة إليه كتب إلى عثمان يسأله المدد فكتب عثمان إلى معاوية فى الشام يأمره أن يشخص إليه من أهل الشام والجزيرة قوما ممن يرغب فى الجهاد ، وكتب إلى سعيد بن العاص فى الكوفة يأمره بأن يمد حبيباً بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلى ، فسار سلمان فى ستة آلاف من أهل الكوفة ولم يصل إلى حبيب إلا بعد فراغ حبيب من حملته الظافرة على الموريان .

ولقد كان كلاهما - حبيب وسلمان - من أشجع القواد وأخبرهم بفنون القتال ، وكان كل منهما «غزاء» معروف السابقة فى ساحات الجزيرة والشام ، فلما أراد سلمان أن يلى إمارة الجيشين أبى عليه حبيب ذلك ، ودخل جند القائدين فى المنافسة وقال أهل الشام لَنَضْرِبَنَّ سلمان إن أبى إلا الرئاسة علينا . فأجابهم أوس ابن مغراء من جند سلمان بشعر يقول فيه :

فإن تضربوا سلمان نضرب حبيبكم	وإن ترحلوا نحو ابن عفان فارحلوا[1]
وإن تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا	وهذا أمير فى الكتائب مقبل
ونحن ولاة الثغر كنا حماته	ليالى نرمى كل ثغر وننكل

ولكن القائدين كانا أحكم وأكرم من أن تفسد عليهما هذه المنافسة عملا حاضرا بين أيديهما ، فافترقا على أن يوغل حبيب فى غرب أرمينية وأن يوغل سلمان فى شرقها ، وأن يتلاقيا إلى الشمال بعد فتح المواقع بينهما ، فدان لهما ما بين البحر الأسود وبحر الخزر . وصرفا بأسهما إلى العدو ضنا بقوة الجيشين أن تتفرق فى المنافسة على الإدارة والسمعة ، ولكنها منافسة كانت تحتدم فى أيام السلم وبين سكان المدن فلا تنتهى بغير خصومة ولا تنتهى الخصومة فيها بغير شر وعناد .

***

ومن مقابلة النقيض بالنقيض أن نستطرد من قصة حبيب وسلمان إلى قصة الوليد بن عقبة وسعيد بن العاص اللذين تعاقبا على ولاية الكوفة فى عهد عثمان ، وقد أجمع المؤرخون على فداحة الخطر الذى نجم من هذه القصة على إمامة عثمان بين أهل الكوفة ثم بين سائر الأمصار .

كان وليد بن عقبة والى الكوفة ثم اتهم بشرب الخمر ، فعزله عثمان وأمر باشخاصه إليه وأسند الولاية بعده إلى سعيد بن العاص ، فغضب نفر من بنى أمية على سعيد لأنه غسل منبر المسجد قبل أن يخطب عليه ، وعدوا ذلك تشهيراً بالوالى المعزول ، وتربصوا به الدوائر يكيدون له بين رعيته ويغرون به من يلغط فى مجلسه .

ونحن نقتبس من جملة المؤرخين ، كالطبرى وابن الأثير وغيرهما ، زبدة هذه القصة التى كان لها كل ذلك الخطر من بدء الفتنة إلى مقتل عثمان . .

وزبدة هذه القصة من مراجعها المتواترة أن سعيدا اختار وجوه الناس وأهل القادسية وقراء أهل الكوفة ، فكان هؤلاء دخلته داخلا وأما إذا خرج فكل الناس يدخل عليه . .

(١) الشعر فى تاريخ الطبرى (ط . المعارف) ٤/ ٣٠٧ وابن الأثير ٣/ ٥٥ وفيهما : «وإن ترحلوا نحو ابن عفان نرحل» .

وسأل عن أهل الكوفة فأطلعوه على حالهم فكتب إلى عثمان بما انتهى إليه كما أمره وقال له فيما قال : «إن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلب أهل الشرف منهم ، والغالب على تلك البلد روادف ردفت ، وأعراب لحقت ، حتى ما ينظر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها» . . .

فأتاه الجواب من عثمان أن يفضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد ، وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم ، إلا أن يكون أهل السابقة قد تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، وليحفظ لكل منزلته ويعطيهم جميعاً بقسطهم على سنة العدل والمعرفة بأقدار الناس . .

وأرسل سعيد إلى وجوه القوم فقال لهم : «أنتم وجوه من وراءكم ، والوجه ينبئ عن الجسد ، فأبلغونا حاجة ذى الحاجة وخلة ذى الخلة ، ثم أدخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخلص بالقراء والمتسمتين فى سمره ، فانقطع الذين لاسابقة لهم ولاندمة بعضهم إلى بعض ، وجعلوا يقعون فيه وفى عثمان ، وكلما لحق بهم لاحق من ناشئ أو أعرابى أو مولى طليق أعجبه كلامهم حتى غلب الشر وفشت القالة ، فكتب سعيد بذلك كله إلى عثمان على ما تعوده الولاة من إبلاغ كل كبيرة أو صغيرة إلى الخليفة منذ أيام الصديق ، فنادى منادى الخليفة إلى صلاة جامعة وخطبهم وتلا عليهم ماجاءه من سعيد وذكر لهم أنه يريد أن يبعث إلى العراق بمن شاء النقلة إليه من أهل السابقة ، ويأذن له فى أن يبيع ما يملك بالحجاز عسى أن يستعين بهم سعيد على نصيحة الشاغبين من الروادف والأتباع . .

على أن سعيداً لم ينقطع عن لقاء العامة إذا جلس للناس ، فحدث عن بعض هذه المجالس أن فتى غرّاً أثنى على طلحة بن عبيد الله فقال : ما أجود طلحة! . . قال سعيد : إن من كان له مثل بساتينه لحقيق أن يكون جوادا . . والله لو أن لى مثلها لأعاشكم الله بها عيشاً رغداً . . فقال عبد الرحمن بن قيس ، وهو فتى حدث : والله لوددت أن لك ما كان لكسرى على نهر الفرات . فانتهره أناس من الحاضرين وصاحوا به : أتتمنى له سوادنا! وهاج الشر بينهم وبين أهل الفتى ، وسمع قومه من بنى أسد بما أصابه فجاءوا وأحاطوا بالقصر ، وعادت القبائل بسعيد فأقسم ألا يغشى مجلسه أحد من أولئك الشاغبين «فقعد أولئك النفر فى بيوتهم وأقبلوا يقعون فى عثمان» . .

ونما خبر هذا الشغب إلى عثمان ، فأذن لسعيد فى إخراجهم إلى الشام ، وكتب

إلى معاوية : «إن نفرا قد خلقوا للفتنة فأقم عليهم وانههم فإن آنست منهم رشدا فاقبلهم وإن أعيوك فارددهم على» .

فلما قدموا على معاوية أنزلهم كنيسة مريم وأجرى عليهم ما كان لهم بالعراق . وكان يتغذى ويتعشى معهم ويحادثهم ويستخبرهم عن شكاتهم عسى أن يقنعهم فقال لهم فى بعض هذه الأحاديث : بلغنى أنكم نقمتم قريشاً ، ولو لم تكن قريش كنتم أذلة . إن أئمتكم لكم جنة فلا تفترقوا عن جنتكم ، وإن أئمتكم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة . والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم السوء ولا يحمدكم على الصبر ، ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية فى حياتكم وبعد وفاتكم .

قال رجل منهم – وهو صعصعة- : أما ما ذكرت من قريش فإنها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها فى الجاهلية فتخوفنا ، وأما ما ذكرت من الجنة فإن الجنة إذا اخترقت خلصت إلينا .

قال معاوية : عرفتكم الآن . وعلمت أن الذى أغراكم على هذه قلة العقول . ثم قال لصعصعة : أنت خطيبهم ولا أرى لك عقلا . . أعظم عليك أمر الإسلام وأذكرك به وتذكرنى الجاهلية . .

وطالت اللجاجة بينه وبينهم فجْمع رأيه على إخراجهم بعد الكتابة إلى الخليفة ، وكتب إليه يصفهم ويقول عنهم :

« . . قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان ، أضجرهم العدل لايريدون الله بشئ ، ولا يتكلمون بحجة ، إنما همهم فتنة وأموال أهل الذمة ، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم ، وليسوا بالذين ينكون أحدا إلا مع غيرهم ، فانه[1] سعيدا ومن عنده عنهم ، فإنهم ليسوا لأكثر من شغب ونكير» .

وخرجوا قبل أن يخرجهم معاوية من الشام فقصدوا إلى الجزيرة ولم يعودوا إلى الكوفة اتقاء الشماتة بهم ، وسمع بهم والى حمص عبد الرحمن بن خالد بن الوليد فاستدعاهم منذرا متوعدا وقال لهم :

– ياآلة الشيطان . لا مرحبا بكم ولا أهلا . . خسر والله عبد الرحمن إن لم يؤدبكم . يامعشر من لا أدرى أعرب هم أم عجم لاتقولوا لى ما بلغنى أنكم قلتم

(١) انه فعل الأمر من نهى ينهى نهيا .

لمعاوية . أنا ابن خالد . أنا ابن من قد عجمته العاجمات . أنا ابن فاقئ الردة . . والله ياصعصعة . . لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى . .

ثم أقامهم شهرا كلما ركب مشاهم معه ، وخافوه فاستقالوه وأعلنوا له توبتهم ، وسرح أحدهم – وهو الأشتر – إلى عثمان فخيره عثمان أن يحل حيث شاء ، فاختار العودة إلى ولاية عبد الرحمن .

وجرى فى البصرة ما كان يرى فى الكوفة من أشباه هؤلاء الروادف ، وكان فى بعض قرى الولاية قاطع طريق يسمى حكيم بن جبلة العبدى يصاحب الجيش ثم يخنس عنه ويغير على أهل الذمة ، فشكاه أهل الذمة ورؤساء المسلمين إلى عثمان فكتب إلى ابن عامر والى البصرة أن يحبسه ومن كان مثله فلا يخرجن من البصرة «حتى تأنسوا منهم رشدا» فحبسه وتعقب خبره ، فجاءه النبأ ذات يوم أن رجلا يدعى ابن السوداء نزل عليه وأخذ يصرح له ولأمثاله بالطعن فى عثمان وخلافته ، فدعا بابن السوداء هذا فإذا هو عبد الله بن سبأ ، يهودى من أهل اليمن يقول برجعة النبى إلى الدنيا ويظهر التشيع لعلى . فسأله ابن عامر : من أنت؟ قال : رجل من أهل الكتاب رغبت فى الإسلام وفى جوارك . ثم أخرجه من البصرة لما علم من لياذه بالمفسدين فيها ، فذهب إلى الكوفة يلوذ فيها بأمثال حكيم بن جبلة فأخرج منها ، وذهب إلى مصر فجعل يكاتب من تركهم فى البصرة والكوفة . وأوى بمصر إلى حمران بن إبان وهو رجل موتور من عثمان ، كان قد تزوج امرأة فى عدتها ففرق عثمان بينهما وضربه وسيره إلى البصرة ، فسعى هناك فى وقيعة بين الوالى ورجل من النساك ، وافتضح كذبه عليه ، فأخرج من البصرة ، وذهب يتردد بين الشام والحجاز ومصر ، فلقيه فيها ابن السوداء وأوى إليه وأدخله معه فى مكاتباته وسعاياته ، وكثرت السعاية بين أهل الأمصار من الروادف وأشباههم ، فمن نزل منهم بالشام أرضاه معاوية أو أخرجه ، ومن تحول عنها كاتب غيره للاجتماع فى مكان لا رقابة عليهم فيه .

وحدث أن الكوفة خلت من واليها سعيد بن العاص وخلفه عمرو بن حريث ، فإذا بجموع المكاتبين تلتقى فيها ، وإذا بأناس منهم يشيعون فى الناس أن سعيدا عائد إليهم ، وأنه ذهب إلى الخليفة يريده على نقصان رزق نسائهم إلى مائة درهم ، ورد أولى البلاء من المجاهدين إلى ألفى درهم ، ويزعم أن الفىء من العراق بستان قريش وأنها تأخذ منه ما تأخذ وتدع ما تدع . وطفق دعاة منهم يذيعون هذه القالة

أيام الجمع والناس مجتمعون فى المسجد فيستخفون ألبابهم ، ولا يستمعون لذى رأى يبطل لهم ما يذاع على كذب بينهم ، وتصدى عمرو بن حريث – خليفة سعيد على الكوفة فى غيابه – لتنفيذ ما زعموا ، فقام على المنبر فى يوم جمعة ينصح لهم ويوصيهم بالطاعة ولا من سميع .

قال القعقاع بن عمرو : «أترد السيل على أدراجه؟ هيهات ، والله لا يسكن الغوغاء إلا المشرفية ويوشك أن تنتضى ويعجون عجيج العبدان ، ويتمنون ماهم فيه اليوم فلا يرده الله عليهم أبدا . «فاصبر» قال عمرو : «اصبر» . وتحول إلى منزله لا يأمر ولا ينهى .

هذه بداية تتبعناها إلى نهايتها . بدأت فى أوائل خلافة عثمان وتتبعناها إلى نهايتها قبيل مقتله ، وما يبلغ من خطب هذه الغاشية أن تفضى إلى مقتل رئيس دولة ، لولا شذوذ فى طبيعتها خرج بها عن سوائها وتعدى بها أطوارها . .

نعم . . هى غاشية هان خطبها لو أنها صادفت أميرا يعالجها بنظام الإمارة ، وهان خطبها لو أنها صادفت واليا مسئولا عن نظام ولايته مطلق اليد فى دفع شواجر الفتنة عنها ، وقد عالج كل وال من ولاة ذلك العهد ما وقع منها فى ولايته ، فاستطاع أن يصرف عنه غائلتها عالجها معاوية بنفى القائمين بها ، وعالجها عبد الرحمن بن خالد بتأديب دعاتها ، ولم يستفحل شرها فى الكوفة إلا بعد أن غاب عنها واليها سعيد بن العاص ، ووقف دونها خليفته عمرو بن حريث مكتوف اليدين وهو بعيد عن مشورة عثمان ومشورة أمير الولاية سعيد ، ولو كان له أن يسكنها بالسيف كما قال القعقاع لما كان تسكينها كثيرا عليه ، ولكن القعقاع نفسه لم يشر عليه بامتشاق السيف على توقعه أن يعج عجيجها ، وإنما أشار عليه أن يصبر فصبر ، ولزم بيته لا يأمر ولا ينهى .

لقد كان خطب الغاشية هينا لو أخذها الآخذون بسلطان الإمارة أو بسلطان الولاية ، ولكنها قد جرى الحساب فيها على سنة الخلافة فى عهد لا هو بعهد خلافة ولا بعهد مملكة ، تتقاصر فيه حقوق الخليفة ولما يتوطد فيه حق الملك ، وهذه هى النكبة الكبرى فى صميمها .

وفى أمثلة الشواجر التى أشرنا إليها فى عهد عمر وعهد عثمان كذلك مجال

المثل الآخر الذى تفترق فيه خطط الخلافة وخطط الملك من جانب الرعية ، قبل جانب الرعاة ، هو مثل الخلاف بين القائدين سلمان وحبيب فى حروب أرمينية . فقد وجد النزاع على الرئاسة ووجد التنافس بين الأتباع ، ولكنهما وجدا فى موقف جهاد . فأوحى الموقف إلى المتنازعين والمتنافسين خير ما يصنعون بغير حاجة إلى مشورة الخليفة ، وهذه حادثة من حوادث عهد عثمان الذى اشتبكت فيه معالم الخلافة ومعالم الملك وغلبت فيه معالم الملك على مطلب المعيشة أيام السلم بعيدا من حمية الجهاد ومن خطر العدو المتحفز للانتقاض ، وقريباً من شهوات الدنيا وبطالة الفراغ . .

وقضى للخليفة الثالث ، باتساع دولته ودرء الأعداء عنها ، أن يتولى أصعب خلافة فى صدر الإسلام . . .

كانت ثورة الفرس والروم والخزر والترك أول صدمة تلقاها ، وأكبر بها من صدمة يتلقاها صاحب دولة فى أول حكمة ، ولكنه ظفر بها وجاوزها بالدولة سليمة منيعة فأسلمه الظفر إلى الصدمة الكبرى ، وهى صدمة الزلازل النفسية التى امتحن بها رعاياه فى بحبوحة السلم والرخاء ، وكانت كلها طورا جديدا فى حياة أولئك الرعايا . فلا هم رعايا خلافة ولا هم رعايا مملكة ، متراوحين هنا تارة وهناك تارة أخرى ، بين بين ، على غير نظام متبع فى حالة واحدة أو فى الحالتين . .

وقد أتينا من قبل على فارق بين الخليفة والملك فى محاسبة النفس على شئون الرعية ، ونأتى الآن على الفارق الأصيل أو الفارق الشامل بين النظامين ، وهو الفارق بين الثقة التى لا تحتاج إلى حماية وبين السلطة التى تحمى نفسها . .

فالخليفة يعمل مايشاء فى ظل الثقة به والاطمئنان إليه ، يعمل اليوم ما ينقضه غدا ولا ملامة عليه ، مادام عمله اليوم والأمس لغيره لا لنفسه ، وللمصلحة العظمى التى لايناله منها نصيب غير نصيبه المقدور ، وقد يرضى هو لنفسه بأقل من ذلك النصيب . . .

رعية تثق بخليفتها وخليفة يثق برعيته ، ولكنه لا يبالى ألا يثقوا به إن كان على طمأنينة بينه وبين ضميره وبينه وبين الله على السنة الإلهية التى يعلمها من أحكام دينه . .

أما الملك فالسلطة هى قوامه عند ذويه سواء نعموا بالثقة طواعية أم خذلتهم هذه الثقة عن إكراه وكراهية . .

وقد وصلت الخلافة إلى عثمان وهو أحوج ما يكون إلى هذه الثقة ، وهى أعصى ما تكون عليه . .

سبقه بالحذر من علية الناس خليفتان بلغت ثقة العلية والدهماء بهما غاية مبلغها ، فأبو بكر كان يحذر الدنيا على أولئك العلية وعمر كان يسلمهم منها ما يأمن عاقبته عليهم ، ولايقدرون على مخالفة لأنهم لايشكون فيه ولا الشك فيه مقبول منهم إذاً .

أما هؤلاء فهم فى خلافة عثمان منافسون ونظراء ، وخلافته بينهم على شرط معرض فى كل لحظة للتأويل والحساب العسير . .

وأما سواد الناس فقد شغلوا أولا ثم فرغوا من الشغل للبطالة والملاحاة وكأنهم ورثوا من بيزنطة سلطانها ومعه محاك الجدل البيزنطى الذى تضرب به الأمثال ، ولا يؤمن سواد الناس مع البطالة والفراغ للقيل والقال . . .

وقد كانت سياسة أبى بكر وعمر أن يستبقيا العلية عندهم ، ويرسلا الجند والقادة على قدر إلى ميادين الجهاد ، وكان عمر يقتضب الولاية على الولاة مخافة - كما قال - من أن يحمل فضل عقولهم على الناس . .

أما سياسة عثمان فقد اختلفت باختلاف الأحوال : سياسة عثمان كانت ترمى إلى إطلاق العلية فى الآفاق ارضاء لهم وتوسلا بمقامهم بين الدهماء فى كل قطر إلى تسديد النصيحة وحسن القيادة واتقاء الفوضى ، وهو اجتهاد منه ، له ولاريب جانبه من الصواب . .

وعزت عليه الطمأنينة إلى الولاة مع الفراغ للدنيا بعد الجهاد ، فاختار للولاية أناسا من ذوى قرابته سبقت لهم ولاية فى عهد الخليفتين السابقين ، عسى أن يصدقوه العون بحكم القرابة إن لم يصدقوه العون خالصا لوجه الله . .

ولما اضطر إلى هذه الخطة حاسب ضميره فعمل على تدارك الضرر منها ، فذلك حين وفد الوفود لكل مصر من الأمصار عليه وال من ولاته الأقربين ، فهم يعيشون فى أمصارهم ويحضر منهم من يشاء فى موسم الحج ليرجع إليه بما يراه موضعا

للمراجعة من أحوال مصره ، وهذه خطته التى آثرها للطمأنينة إلى ولاته والطمأنينة على رعاياه . .

والذى شاع عن عثمان - وما أسهل الإشاعة - أنه كان يبالى ذوى الثراء ولا يبالى المقترين والضعفاء ، والذى كان يحدث منه فعلا أنه يغضب الطامعين ويحمى المطموع فيهم من أهل الذمة وأهل الحاجة والمتربة ، فمن أجل إبل الصدقة غضب الغاضبون حين حمى لها المرعى ، وزاد فى مرعاها على حسب زيادتها ، ومن أجل أهل الذمة غضب الشطار من قبيل حكيم بن جبلة لأنه أدبهم وأمر بحبسهم ونهاهم عن أموال أهل الذمة وهم يحسبونها حلالا مباحا لمن يسطو عليها ، وكان رهط المبعدين من الكوفة إلى الشام يحاور معاوية فى هذه الأموال فينهاهم عنها ويكتب عنهم إلى عثمان أنهم «لا يتكلمون بحجة وإنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة» .

فأما الرزق الحلال فقد فرض لأصحابه ضعف ما كانوا يأخذونه من الأعطية يوم تولى الخلافة ، ولم يفعلها سياسة بل فعلها إيمانا بالصواب فى هذه الزيادة ، وقد كان هو فى عهد الفاروق أول من قال بكثرة المال وأشار عليه برصد الأسماء وتوفية كل ذى حق حقه من العطاء خشية النسيان والتكرار . .

وقد تعود المؤرخون أن يقسموا عهد عثمان قسمين : قسم الصلاح والرضى ، وقسم الخلل والشكاية ، وهم على صواب فى تقسيم هذا وإن لم يصب منهم من قال انهما قرينان لأيام الكهولة وأيام الشيخوخة فى حياة عثمان .

فالواقع أن عثمان كان شيخاً جاوز السبعين على أرجح الأقوال فى كلا القسمين ، ولكن الفرق الصحيح بين السنوات الأولى والسنوات الأخيرة من عهده أن الناس كانوا فى شاغل بدفع الأعداء فى السنوات الأولى ، وأنهم فرغوا للجدل والملاحاة فى السنوات الأخيرة ، وأن اتهام الولاة أيسر من اتهام القادة فى إبان القتال ، وقد صارت الرئاسة كلها إلى الولاةبعد المشاركة بينهم وبين قادة الحروب . .

ولم يأت هذا التغيير فى أطوار النفوس من جانب واحد ولا من الرعية وحدها دون راعيها ، فحسب طالب الحقيقة أن يعلم أنه لم يأت كله من جانب عثمان ، وأن الرعية تغيرت فلم تصبح رعية خليفة ، وهى تحاسب ولى أمرها بميزان الخلافة . .

أما أن عثمان لم يشترك فى هذا التغيير بعمل من عنده فذلك هو الطرف الآخر من طرفى الباطل والادعاء . .

إنما آفة عثمان أنه لم يخل من الأموية ولم يكن أمويا «كفاية» . .

فمن خلاله الأموية حب القرابة فهو مبالغ فى إيثاره لذوى قرباه . .

ومن خلاله الأموية تلك «الطبيعة العملية» التى لم يكن للأسرة فكاك منها . .

لقد كان أبو سفيان يخلط بين النبوة والملك فيقول للعباس : «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما» . .

وكان ينظر إلى مال الفيء بين يدى رسول الله فيقول للرسول عليه السلام : «لقد أصبحت أكثر قريش مالا» . .

وروى عن الحسن أن أبا سفيان دخل على عثمان رضى الله عنه حين صارت الخلافة إليه فقال : «قد صارت إليك بعد تَيم وعدىّ ، فأدرها كالكرة واجعل أوتادها بنى أمية ، فإنما هو الملك ولا أدرى ما جنة ولا نار» . فانتهره عثمان وأخرجه مطرودا من عنده . .

إن عثمان لأنزه نفسا وأطهر عقيدة من مثل هذه النزعة الدنيوية ، ولكنه سلم من شر ما فى «الأموية» ولم يسلم من ميراثها بأجمعه ، فكانت له نظرة إلى الإمامة قاربت أن تكون نظرة إلى الملك ، وكان يقول لابن مسعود كلما ألح عليه فى المحاسبة : «مالك ولبيت مالنا؟» . . وقال فى خطبته الكبرى يرد على من أخذوه بهباته الجزيلة فى إيتاء ذى القربى على رواية الطبرى : «فضل من مال ، فلم لا أصنع فى الفضل ما أريد ، فلم كنت إماما؟» . .

فقد كاد فى هذا المقال أن يرفأ الخلافة برقعة من الملك ، ومالت به طبيعة العصر كله إلى بقية من النزعة الأموية فكاد الملك والخلافة لديه يلتقيان فى حساب الأموال . . . .

***

على أنه مع هذا التوسع فى فهم حقوق الإمامة لم يثبت أنه أنفق المال فى غير مصالح الأمة كما يقدرها ويوافقه على تقديرها الكثيرون من المحدثين الذين نشأوا فى عصر الاقتصاد وتقسيم الموارد والمصروفات على حسب مرافق الدولة ، وثبت على التحقيق أنه أنفق من ماله الخاص - قبل الخلافة وبعدها - لاستصلاح أمور

عامة منْ خصائص بيت المال ، وقد تحرج أشد التحرج من إنفاق المال على حرس يحميه فى أسوأ أيام الفتنة ، ولو أنه فعل لما خالف بذلك سنة الحكم فى نظام من النظم الحكومية .

وكانت له «سياسة اقتصادية» يلاحظ فيها تدبير المرافق العامة وتيسير التجارة والعمارة ، ومنها إصلاح ميناء جدة وتمهيد الطرق وإقامة الشرطة فى المخافر وتنظيم الأسواق . .

ومهما يقل القائمون عن ترخصه فى العطاء وبذل الرواتب من بيت المال فلا قول لأحد فى حرمة الحياة عنده حتى فيما يخشى منه الجور على حياته ، فما طاوعه ضميره على إيقاع حكم الموت بإنسان ممن استحقوا هذا الحكم بالشغب والعصيان ، ومن لامه فى هذا الباب فإنما يلومه لأنه أفرط فى الرحمة والأناة ، ولا يلومه لأنه قسا فضلا عن الإفراط فى القسوة . .

والمشقة التى يلقاها المؤرخون فى هذا الصدد عظيمة متعبة ، لأن الغالب فى المؤرخين أنهم يستسهلون الرأى كلما كتبوا عن رجل اشتهر بصفة من الصفات ، وهم على دأبهم هذا قد يستسهلون الرأى فى تقدير سياسة عثمان بعد السنوات الأولى من خلافته على الخصوص ، فما كان عملا وتدبيرا فليس أسهل من إسناده إلى أعوانه ، وما كان توانيا وتفريطا فليس أسهل من إسناده إليه ، وإن أسندوه إليه ليقولوا إنه غلب عليه . .

وتحضرنى فى هذا المقام مساجلة بين بعض الصحاب سمعناها عن ضعف عثمان وتسيير الناصحين له من حزبه ومن غير حزبه ، وإحدى الدلالات على ذلك أنه تاب ثم عدل عن التوبة مرات فى عامه الأخير . .

والأمر الذى نسيه أصحاب هذه الدلالة أن التوبة شىء لم يطلب قط من أحد فى تلك الآونة إلا استجاب إليه ، وما قيل لأحد قط تب إلى الله فأجاب على ذلك بغير التوبة والاستغفار ، فما كان منهم من أحد يرى أنه غنى عن الاستغفار وتكفير الذنوب فى وقت من الأوقات ، أو كان يستعلى عن الوقوف أمام الله موقف التوبة والندامة ، ما كانت توبات عثمان إلا من هذا القبيل كلما دعى إليها فى أيامه الأخيرة ، فإنما هى توبة لله وأمام الله . ولا عليه أن يعيدها فى اليوم مرات بعد مرات . .

فمن تيسير المؤرخ على نفسه أن يحيل عمل عثمان وتدبيره على الأعوان والنصحاء ، وأن يحيل التوانى والتفريط إليه أو إلى غلبة الأعوان عليه ، ولاسيما المسئول الأكبر فى رأى الأكثرين عن أخطاء عثمان ، ابن عمه مروان . .

فما كان لمروان هذا من القوة ما أسبغه عليه المداحون بعد قيام الدولة الأموية ، ولم تكن له هذه القوة حتى فى مطامع الملك وهمم السيادة والرئاسة ، فإنه كان يزاحم معاوية فلم يستطع أن يبلغ معه كثيرا ولا قليلا ، وراح يحرض عمرو بن عثمان ليناوئ معاوية ويقول له إنه لم يأخذ الخلافة إلا باسم أبيك ثم ينزوى ولا يجسر على الظهور . . ولم يفارقه هذا الخمول بعد موت معاوية وابنه يزيد ، فكاد أن يبايع عبد الله بن الزبير بالخلافة لولا النزاع بين اليمانية والقيسية فى الشام . .

وقد أودى حمقه بحياته بعد أن صارت الخلافة إليه ذلك المصير الذى لافضل له فيه . فقد خشى أن يكبر خالد بن يزيد بن معاوية فينازعه سريره ، فلم تهده حيلته إلى عمل يحتاط به لهذه المنازعة غير أن يتزوج أمه ليصغره ويلحقه بأتباعه ، وأمعن فى هذه الحيلة لما كبر خالد فقال له على مسمع من أشراف القوم : مالك ولهذا ياابن الرطبة . . فكان فيها حتفه ، وقيل إن خالدا أخبر أمه فقالت له : لايعلمن أحد أنك أخبرتنى ، ثم وضعت على رأس مروان وسادة ولم ترفعها حتى مات . .

فمروان هذا ليس بالعون الغالب الذى لايخالف ، وليس هو على الأقل بالذى ينسب إليه الرفق فى تسيير الناس للقتال متطوعين ، أو الرفق فى محاسبة الخصوم والثائرين أو بذل العطاء لمن ينافسهم وينافسونه من رؤساء بيت العاص أو بيت حرب فى بنى أمية ، وغاية شأنه أنه المأمور الذى لا يستعاض عنه بمن هو أنصح منه وأقدر على الطاعة وأعرف بما كان وماهو كائن من أخبار العاصمة وأحوال الولايات لطول المراسلة والمعاشرة ، ومن كان يحسب أن مشورته السيئة هى علة العلل فى محنة عثمان ، فعليه أن يلغى هذه المشورة ويفترض أنه لم يقل بها ولم تسمع منه ثم لينظر ماذا يقدم هذا أو يؤخر من أزمة الحكم ومن فاجعة عثمان . .

إنما المحنة كلها أنه زمن كان يحتاج حينا إلى ثقة الخلافة فلا يجدها ، ويحتاج حينا آخر ، أو فى الحين نفسه ، إلى سلطة الملك فلا يجدها ، ولن يسلم حكم يحتاج إلى سند الثقة فى موضعه أو إلى سند السلطة فى موضعه ، فلا يجد هذا ولا ذاك . .

عمل من أخلق الأعمال أن يوصف بأنه «عمل عثمان» فى الإقدام عليه وفى أثره . .

فهذه الجرأة أحق شىء أن يلتفت إليه من كانوا يحسبون أن صفة الرحمة أو صفة الطيبة تحجب الشجاعة وتثنى صاحبها عن تبعته إذا أمن بها . .

وهذا العمل - فى اختلاف تقديره وأثره - مثال من أعمال عثمان كافة ، إذ كان معدودا عليه من أكبر السيئات ، ولم يبق لعثمان حسنة أعظم منه فى تاريخ الإسلام .

النهايـــة

قلنا فى الفصل الأول من هذا الكتاب : «إن الصعوبة الكبرى أننا فى هذه الفترة أمام حادثين يرجع كل منهما إلى أسبابه وعوامله ، ويتكلم عنهما بعض المؤرخين كأنهما حادث واحد متحد الأسباب والعوامل ، هذان الحادثان هما التطور الاجتماعى ومقتل عثمان رضى الله عنه ، وأسباب هذا لا تكفى لتعليل ذلك وليس من الحتم أن تؤدى إليه» .

ومقتل عثمان لايوصف بأكثر من أنه «مشاغبة دهماء» لم تجد من يكبحها . .

أما التطور الاجتماعى فلابد من التفرقة فى تعليله بين لغط الألسنة فى حينه وبين البواعث الحقيقية التى عملت فيها عملها الفعال ولم تعمل فيه بداهة بألسنة اللاغطين فى ذلك الحين .

إنهم لغطوا يومئذ بسيادة قريش ، ولغطوا بالأموال التى أغدقها ولاة الأمور على الأنصار والأشياع ، ولغطوا بإيثار الصنائع وذوى القربى . .

ولم يكن شىء من هذا اللغط علة للتطور الاجتماعى الذى بدأ بعد دعوة الإسلام وانتهى بقيام الدولة الأموية .

فالذين شغبوا على عثمان جاءوا من البصرة والكوفة ومصر ليبايعوا واحدا من ثلاثة هم الزبير وطلحة وعلى ، وكلهم من قريش .

ودولة بنى أمية قامت بعد ذلك وهى دولة قرشية غالية فى عصبيتها .

والذين ثاروا على بنى أمية إنما ثاروا باسم بنى هاشم وهم قرشيون ومن بنى هاشم قامت دولة العباسيين ودولة الفاطميين .

وبعد نحو مائة سنة من مقتل عثمان قام بالأمر فى الأندلس «صقر قريش» عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، فبايعه العرب والبربر لأنه من سلالة قرشية . . .

فلا يكفى أن يلغط بالنقمة على قريش سامرون فى مجلس أو لاغطون فى طريق ، ليقال إن التطور الاجتماعى أيام عثمان إنما كان مداره على الضجر من قريش والرغبة فى الخلاص من سيادتها .

أن عبد الله بن أبى السرح كان أكفى الكفاة فى قيادته ، وأنه انتصر حيث قاد جيشاً فى البر أو فى البحر ، ومع الروم أو مع أهل إفريقية ، وزعموا أن عثمان نفل مروان بن الحكم بخمس الغنائم التى أرسلها ابن أبى السرح من إفريقية ، وهو غير صحيح ، وإنما الصحيح أن ابن أبى السرح أخرج الخمس من الذهب وهو خمسمائة ألف دينار فأنفذها إلى عثمان وبقى من الخمس أصناف من الأثاث والماشية يشق حملها إلى المدينة ، فاشتراها مروان وبقيت من ثمنها بقية عنده فوهبها له عثمان يوم بشره بفتح إفريقية ، والناس على وجل من أخبار الغارات عليها . .

وكقصة ابن أبى السرح قصة الحكم بن العاص الذى رخص له عثمان فى العودة إلى المدينة بعد أن نفاه النبى عليه السلام عنها ، فإنما أبى النبى أن يساكنه فى المدينة ، ثم وعد عثمان أن يعفو عنه ولا حرج من مقامه حيث لا مساكنة له عليه السلام بعد وفاته . فقد أذن له بالمقام فى الطائف حيث لايسكن معه وهى أحب فى سكنها وأشهى .

ومن هذه الشكايات التى يبحث عنها الباحث ، أنه ولى الوليد بن عقبة لقرابته ثم اتهم بشرب الخمر وثبتت عليه التهمة . . فأما أنه هو الذى ولاه فغير صحيح لأنه كان مولى من قبل عمر ، وأما أنه شرب الخمر فقد أقام عليه عثمان الحد وعزله ، ولا يطلب من الإمام أكثر من ذلك . .

ولاموه لأنه لم يقتص من عبيد الله بن عمر لقتله الهرمزان المتهم بالتآمر على قتل أبيه ، وأيا كان وجه العدل فى هذه القضية لقد كان لوامه على قتل عبيد الله لو أنه أخذه بالهرمزان أكثر من عاذريه ، فما كان أكثر من يقول يومئذ أن عمر قتل بالأمس وابنه يقتل اليوم ، وقد كان عذر عثمان فى ترك عبد الله أنه دفع الفتنة ، فأطلقه ولما يمض على قتل أبيه أيام ، ودفع الفتنة ولاريب حق من حقوق الإمام .

وذكروا أنه أبعد أناسا من الصحابة عن مساكنهم أو عن أعمالهم ولم يذكروا أنهم أغلظوا له فى القول ولم يوقروه ، وقد ضرب عمر بن الخطاب سعد بن أبى وقاص لأنه لم يقف له فى مجلس الخلافة ، وقال له : إنك أردت أن تقول إنك

لاتهاب الخلافة ، فالخلافة تقول إنها لاتهابك!» ولم يعرف عن إنسان أنه اعتذر لصحابى من الإساءة إليه كما اعتذر عثمان لابن مسعود إلى يوم وفاته ، وهو غاية ما يستطيع .

***

وإذا كان أساس البلوى كلها سهولة الشكوى ، فيومئذ يظهر بالشكوى من كان حقه أن يتوارى بها من أصحاب الترات والذنوب ، ولكن سماحة عثمان أطمعتهم فى الظهور وسولت لمن شاء منهم أن يجترئ عليه مع الشاكين والمتذمرين ، وأعجب العجب فى هؤلاء قصته مع محمد بن أبى حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس قريب عثمان وربيبه فى داره . فإن الناس قد ولعوا بالكلام على محاباة عثمان لأقربائه وهذا واحد من أقرب الأقربين إليه أقام عليه الحد لأنه أصاب شرابا ، ثم جاءه يطلب منه ولاية فأباها عليه وقال له : لو كنت أهلا لذلك لوليتك! نكان هذا زعيم الثائرين عليه فى مصر ومعه نفر من ذوى قرباه .

ومنهم من عاقبه عثمان لأنه كان يلعب بالنيرنجيات ، ومن عاقبه لأنه تزوج بامرأة فى عدتها ، ومنهم من عزله كعمرو بن العاص فكان أحكم من أن يجهر بالشغب عليه ، ولكنه كان يدعوه جهرة إلى التوبة وهى دعوة أشبه ما تكون بالاتهام الصريح .

ومنهم من كان يزجره ولاة عثمن لأنه كان يهذر فى الدين بما لايعلم ، أو يهذر فيه بما يعلم أنه الباطل ويضمر من ورائه سوء النية ، كعبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء ، فقد أخرجه الولاة من بلد إلى بلد لأنه كان يقول برجعة النبى إلى الدنيا وحلول روح الله فى على ، وقد كان على رضى الله عنه أشد على ابن السوداء هذا من عثمان وولاته .

وبين هؤلاء الشاغبين يُسمع النصح الصادق من رجل كأبى ذر يروعه البذخ والترف ، فيدعو إلى التقوى والصلاح ، وينعى على الذين يكنزون الذهب والفضة ويحبسونهما عن الخير والصدقة ، نتحسب صيحته على عثمان ولاقبل لعثمان بتغيير الزمن وتبديل الأوان ، وقد حذر منه قبل أوانه الصديق ، ثم حذر منه الفاروق

وجلة الصحابة الأكرمين . ولا شيء يجنى من تلك الصيحة إلا أن تملى للشاغبين فى شغبهم ، وهم لايصدقون صدق أبى ذر ولايتقون تقواه .

ولقد أشير على عثمان بالضرب على أيدى الشاغبين وكان عمرو بن العاص أول من قال له أنه قد لان لهم فى المقال ولم يجزهم بما استحقوه من جزاء ، ومن محنة الإمامة فى ذلك الزمن أن يلام الإمام على النقيضين : على الرأفة بالشاكين وعلى أنه أغضبهم ولم يجبهم إلى ما سألوه .

***

ولما جمع مجلسه للشورى كان من ناصحيه من أشار عليه بأن يشغل الناس بالجهاد ، فلم يرض أن يكون الجهاد سياسة يحمى بها نفسه ويشغل بها الساخطين عليه . .

وكان من ناصحيه من أشار عليه باتخاذ الحرس أو بالسفر إلى الشام ، فلم يقبل هذا ولا ذاك .

وكان رأى على أن يشتد فى حساب الولاة ، وأن يعزل منهم من نهج فى الولاية منهجاً لم يكن يرضاه قبله الفاروق ولا الصديق ، ولو فعل لعزل معاوية أول من عزل ، ولكن ولاية معاوية فى الشام كانت أقل الولايات شغبا عليه . .

وللسائل فى أمثال هذه المآزق أن يسأل : «فعل عثمان هذا أو ذاك فسخطوا عليه ، فهل يرضون عنه لو لم يفعل هذا وذاك؟» .

واليقين فى رأينا أن الرضى عنه فى أمثال ذلك المأزق مطمع لا يرام ، لأن أساس البلاء كله سهولة الشكوى من الدهماء ، ومتى سهلت الشكوى فالإعراض عنها محنة ، واستجابتها محنتان ، لأنها تغرى بالشكوى من جديد وتزيد البلاء بزيادة السهولة طمعا فى دوام الصغاء .

وتحسب على عثمان أخطاء وهنات جنت عليه ، وساعدت من أراد أن يتجنى عليه بالحق وبالباطل ، منها توسعه فى حقوق الإمامة ، وتوسعه فى معيشة الغنى بعد خليفتين كانا مثالا فى التقشف والرضى بالقليل ، وقد توسع كذلك فى تقريب ذوى قرابته واصطفائهم لأعماله وبطانته ، ولم يردعهم أن يجبهوا كبار الصحابة من أمثال على وعبد الرحمن بن عوف بسوء المظنة والتهمة الجائرة ،

فجعلوهم فى حيرة من أمرهم : إن دخلوا فى أمر الفتنة على عزم وقوة لم يأمنوا التهم ، وإن تجنبوا الأمر كله عزلوا عثمان حتى يشعر الناس بعزلته ، وقد ظن من ظن بعد تفاقم الشر أن عثمان إنما صرف من تطوعوا لحراسته فى داره لأنه لم يكن على طمأنينة من جانبهم ، فتفرقوا وأحس الشاغبون حول الدار من تفرقهم كأنهم خاذلوه .

***

ومن الإنصاف له أن يقال أن تقصيره فى حق نفسه كان أكبر من تقصيره فى حق رعيته ، فقد أفرط فى المسالمة واغتفر مالا يغتفر من العدوان عليه فى حضرته ، وتحرج غاية التحرج من البطش بمساعير الفتنة لأنه لم يكن من الغرور بحيث يبرئ نفسه من تبعة سخطهم ولم يكن من الأثرة بحيث يدرأ عن نفسه الخطر وهو لايبالى أكان على خطأ أم كان على صواب . .

ولا نحسب نحن من أخطائه أنه أصر على الإمامة وأبى أن ينزل عنها وقال لمن أنذروه القتل إن هو لم يعتزل ، أنه لايخلع قميصاً ألبسه الله إياه ، فقد عزا بعضهم هذا الإصرار إلى وصية النبى له فى مرض وفاته ، وعزاه بعضهم إلى يقينه من الموت ويأسه من جدوى الاعتزال على رعيته ، وأياً ما كان باعثه على الإصرار فهو الباعث الذى لايعزى إلى الأثرة ولايفسره إلا الإيثار فى سبيل ما اعتقده واجبا عليه ، حتى الإيثار على الحياة . .

ومن الفضول فى سيرة تدور على «تحليل الشخصية» أن نطيل فى سرد أحداث الفتنة التى انتهت بمقتله ، وأن نحصر أسماء من تكالبوا ومن دعا منهم ومن أجاب ، فكل ما رواه المؤرخون من هذه الأحداث يدل على مؤامرة بين وفود الأمصار ، عملت فيها الدعاية والاستثارة وعملت فيها الشعوذة والضلالة المدبرة ، ولم تكن قط فى مصلحة رأس من رؤوس الصحابة الكبار فيميل الظن إلى اتهامه بالتدبير ، فان الفتنة التى يلغط فيها بالثورة على قريش لن تكون من تدبير القرشيين ، وأن الفتنة التى يشعوذ بها أصحاب الضلالة ممن يزعمون أنهم من دعاة على لن تفيد عليا عند المؤمنين ولن يرضاها على لدينه ولا لدنياه . .

إنما هو شغب غوغاء لا رأس له ولا قدم ، ووجود التدبير وراء هذا الشغب الأعمى هو الذى يوحى إلى المؤرخ أن يدا كانت تعمل فيه لمحض الشغب وإلى غير نتيجة إلا أن يفسد الأمر على الدولة الإسلامية ، وتحوم الشبهات من أجل هذا حول ابن السوداء ومن كانوا يستمعون إليه من شذاذ الأمصار الذين قيل فيهم : «لا ندرى أعرب هم أم عجم ومسلمون هم أم مفسدون مدسوسون على الإسلام . . .» .

ثم بلغ الكتاب أجله بقصة ذلك الكتاب الذى قيل أنهم وجدوه مع غلام لعثمان يأمر فيه والى مصر أن ينكل بقادة الوفد الذى عاد من عند عثمان . .

عاد وفد مصر من عند عثمان موعودا بما يرضيه ، ثم لم يلبث أن قفل ومعه كتاب مختوم بخاتم عثمان يأمر فيه بجلد «عبد الرحمن بن عديس وعمرو بن الحمق وعروة بن البياع وحبسهم وحلق رؤوسهم ولحاهم وصلب بعضهم» . .

ولم يعد وفد مصر وحده بل عاد معه وفد الكوفة ووفد البصرة وهم مفترقون فى الطريق ، ولم يفت علينا أن يسألهم عن هذا الملتقى العجيب ، إن صحت قصة الكتاب!

***

وحان المصرع الأليم الذى لانحب أن نطيل النظر فيه ، فإن تريثنا بعده هنيهة فإنما تتريث لنستخرج العزاء لبنى الإنسان من الشر المركوز فى طبيعة الإنسان . .

لئن كان مصرع عثمان شرا مطبقا ، لقد كان كجميع الشرور ، ينطوى على خير يبقى بعد زوال الغاشية فى حياة فرد أو أفراد . .

كان الخير فيه ذلك الحق الذى آمن به من لايحسنونه ، فأراهم أنهم أهل لحساب ولى الأمر وهو يبسط سلطانه من تخوم الصين إلى بحر الظلمات . .

وكان الخير فيه ذلك الإيمان الصادق الذى صمد به شيخ فى التسعين للكرب المحيق به وهو ظمآن محصور فى داره بغير نصير ، ولو شاء لكان له ألوف من النصراء يريقون البحار من الدماء ، حيث عزت قطرة الماء .

***

وإن وجبت كتابة السير ، فأوجب ما يوجبها أن تكشف جانب الخير فى أغوار النفس الإنسانية ، لاقصيدة مديح كما يقال بل تحية صدق تمتحن بالنار والنور بين ظلمات الشرور . وهذه السيرة الرابعة من سير الخلفاء الراشدين لانسميها بالعبقرية كما سمينا عبقرية عمر وعبقرية الإمام وعبقرية الصديق ، لأننا لا نؤمن بالعبقرية لعثمان رضى الله عنه ، ونؤمن فى الحق أنه ذو النورين : نور اليقين ونور الأريحية والخلق الأمين . ومن أبى عليه ميزانه أن يحابى فى كلمة تستدعيها المجاراة لما سبقها من الكلمات لن ينظم قصائد المديح فى محراب التاريخ ، فحسب النفس البشرية أملا أنها غنية بالحق عن قصائد المديح فى هذا المحراب . .

***

الفهرس